رفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة وتوظيفها في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية

د. حجازي عبد المنعم سليمان(*)

وقرت الديانات السماوية – وأغلب غير السماوية – رُفات الموتى وبقايا القبور وحافظت على حرمتها، ولعل في تحنيط المصريين لأجساد موتاهم أحد أهم الدلائل على ذلك، مثلما كانت البوذية تُقدس عظام بوذا، وقدست التقاليد الرومانية رفات الموتى بصورة أقرب للمفهوم المسيحي، بينما كان لرفات الموتى في الديانات السماوية – اليهودية والمسيحية والإسلام – حرمة كبيرة، وارتبط ببعضها رموز مهمة كالارتباط بين اليهود وتابوت العهد الذي مثل لديهم أحد أهم رموز البركة والقوة، ناهيك عن تبجيل المسيحيين للرفات والمتعلقات المقدسة وبخاصة صليب الصلبوت وتاج الشوك وما إلى ذلك من رفات ارتبطت بالسيد المسيح– عليه السلام – ارتباطاً مباشراً، في الوقت الذي بجل فيه بعض المسلمين المخلفات المادية للنبي ﷺ بعضها – كالبردة والعباءة مثلاً – من أهم رموز السلطة لدى العباسيين على وجه الخصوص.

وعُدت رفات القديسين في اللاهوت المسيحي مثوى للروح القدس تحل بها وتتحقق حولها الكثير من المعجزات، ولذا اضطُرت السلطات العلمانية والكنسية إلى التساهل في مسألة تداولها وانتشارها أمام ازدياد حاجة المجتمع إلى التبرك بها. وقد وُقرت الرفات في أوربا بشكل كبير وهو الإرث الذي حمله قادة الحملة الصليبية الأولى وجنودها معهم في طريقهم إلى الشرق على ما يتضح من حملهم لبعض

(*) أستاذ مساعد تاريخ عصور وسطى – آداب، المنوفية .

الرفات معهم أو قسمهم عليها في طريق رحلتهم إلى الشرق أو ببحثهم عن رفات بعض القديسين في بلاد الشام لحملها إلى مدينة بيت المقدس.

وتُعرف الرفات أو الآثار *Reliquiae* بأنها الأشياء المادية المرتبطة بأجساد القديسين التي اندمج بها القوة المقدسة لهم، كما استُخدمت مصطلحات أخرى بديلة مثل المتعلقات أو البقايا (*Pledges*) *Pignora,* للدلالة على الأهمية التي تُمثلها تلك الرفات[١]. ولا يقتصر مفهوم الرفات على عظام القديسين فحسب وإنما اتسع ليشمل أجزاء من أجسادهم كالأذرع والأقدام والأكتاف والأصابع، ناهيك عن الأماكن التي وُزعت فيها ومواضع قبورهم والأدوات التي استخدمها القديسون ومتعلقاتهم الخاصة مثل كُتبهم والمقتنيات المادية التي لامسوها أو لامست رُفاتهم والأواني التي استخدمها القديس أو استُخدمت في نقل رفاته. وعُدت الصور والأيقونات بمثابة مزارات مهمة مثل الوجه المقدس *Christ's Volto Santo* وكذلك القربان المقدس الذي صار يُعامل معاملة الرفات المقدسة حينما انتشرت المسيحية وازداد الطلب على الرفات في الوقت الذي لم يعد فيه شهداء – نتيجة لتوقف الاضطهاد – وحينها صار خمر القربان وخبزه يُمثلان جسد المسيح ودمه[٢]، علاوة على صور السيدة مريم العذراء وبخاصة في صديانا وغيرها[٣].

وقد صنفت البابوية رُفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة على ثلاث درجات يتصدرها رفات القديسين أو أي من أجزائها *Integrant* مثل الرماد والأطراف والعظام، ويليها المتعلقات والأدوات التي استخدمها القديسون وهم على قيد الحياة على غرار السلاسل التي عُذبوا – أو ربطوا – بها والملابس التي كانوا يلبسونها والأدوات التي استخدموها والصلبان التي رُفعوا عليها[٤]...الخ، ثم الدرجة الثالثة الممثلة في "رفات الاتصال" *Contact Relics* عن طريق وضع قطع من القماش أو الحُلي بجوار رُفات القديسين فتكتسب قدرة الرفات التي وُضعت إلى جوارها أو اتصلت بها[٥]، وفي هذه الحالة ترمز رفات الاتصال إلى مملكتي السماء والأرض، فقد كان أصحابها أعضاء نشطين في مجتمع الكنيسة بل وصارت رفات القديس في وقت ما تُمثل الشخص نفسه[٦]، وقد أرتأى الصليبيون في الرفات القدرة على إحداث

المعجزات في الدنيا بالرغم من انتقال أربابها إلى العالم الآخر[٧]، وبالرغم من تلك القيمة التي شغلتها الرفات فقد عُوملت معاملة البضائع في البيع والشراء وأحيانا السرقة[٨].

وثمة مشاكل وصعوبات كثيرة تُواجه دراسة الرفات والمتعلقات المقدسة يتصدرها جدل المؤرخين المعاصرين ومن ثم المحدثين المتعلق ببعض الرفات والمتعلقات المقدسة وما ترتب على مواقفهم من نتائج خطيرة، ولأجل ذلك فإن الباحث يواجه مشكلة كبيرة في عرض الأمثلة الدالة على توظيف الرفات، وقد قدم الصليبيون أنفسهم نماذج على حالات الموافقة أو الرفض كما الحال في مسألة الحربة المقدسة التي زعم بعضهم العثور عليها في أنطاكية حينما انهارت الأيديولوجية الصليبية بينما رفض غيرهم القصة من منبعها[٩]، وفي فترة متأخرة في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي حينما أشار فلكس فابري إلى وجود كثير من الرفات والمتعلقات المقدسة التي لا قيمة لها نظراً لحالات الغش والخداع التي يقوم بها بعض المسلمون في بيعهم إياها إلى الحجاج، وهذا يعني أن بعض الرفات التي بُني عليها بعض الأحكام قد تكون موضعًا لكثير من الأقاويل بين القبول والرفض.

وعلاوة على ذلك فإن المشكلة الأكثر جدلاً تظل قائمة في فرضية كون الشرق بمثابة أكبر مقبرة جامعة للرفات والمتعلقات المقدسة، بحيث صارت الأماكن التي زارها المسيح – عليه السلام – والحواريون والشهداء مُتعلقات مُقدسة تؤدي دور رفات القديسين في شفاء الأمراض وعلاجها والتصدي للأعداء وإخماد الحرائق والقضاء على الأوبئة والمجاعات أو جلب الرخاء والاستقرار للمكان، وهذا يعني أن يتعرض الباحث لكافة المزارات التي كانت بمثابة مصدر اهتمام من الرحالة والحجاج كالمقابر والأضرحة والكنائس والأنهار والجبال والصخور والمدن والقرى والأحجار الصخرية والصور الزيتية والجدران وما إلى ذلك[١٠]، وهو أمر يصعُب معه توظيف رُفات القديسين ومتعلقاتهم بصورة مباشرة خصوصاً أن ما سبق يدخل في نطاق رحلات الحج المسيحي في الشرق عموماً وبلاد الشام خصوصاً[١١].

ولم يقف الباحث في المكتبة العربية على بحث قائم بذاته في موضوع الرفات، بينما وضعت منال محمد السيد بحثا بعنوان "الحربة المقدسة بين الحقيقة والخيال" هدف إلى الوقوف على حقيقة الحربة والانتقادات التي وُجهت إليها من المعاصرين والمحدثين دون النظر إلى توظيفها[١٢]، بينما لم يقف الباحث في المكتبة العربية على عنوان قائم بذاته في هذا الموضوع.

وقد تعددت الرفات التي وظفها الصليبيون على غرار الرفات الجثمانية[١٣] وصليب الصلبوت – وقطع خشبه الكثيرة التي كانت تظهر من وقت لآخر[١٤]، والحربة المقدسة التي ظهرت أمام أنطاكية، ودم المسيح – عليه السلام – والسلسلة التي عُلقت في رقبته فاعتاد الحجاج وضعها على رقبتهم على عصر الحروب الصليبية، ومكان طبعة قدم المسيح – عليه السلام – التي أشار بعض الرحالة إلى اشتراك المسيحيين والمسلمين في تبجيلها[١٥]، وطين حقل في دمشق أُشير إلى خلق آدم – عليه السلام – منه وحُملت كميات كبيرة منه[١٦]، علاوة على الزيوت المقدسة المرشحة من بعض الرفات، وحليب العذراء الذي صُدر للغرب، ناهيك عن الحجارة المُقدسة المنتزعة من قبة الصخرة ومن مكان الصلب في جبل الجلجثة وعمود الصخر الذي رُبط إليه المسيح – عليه السلام – وعذب، وقد نُقلت بعض أجزاءه إلى بعض الكنائس في أوربا[١٧].

وقد سبقت عمليات نقل رفات القديسين ومتعلقاتهم من الشرق إلى أوربا عصر الحروب الصليبية بكثير سواء بالتهادي أم بالشراء أم بأية طريقة أخرى كالسرقة، ولعل وجود أغلب الرفات المتعلقة بالسيد المسيح – عليه السلام – والقديسين المشهورين – الذين استُشهدوا في مصر والشام والعراق وآسيا الصغرى – في القسطنطينية[١٨] لأكبر دليل على ذلك لاسيما أنه كان للإمبراطورية البيزنطية صلات مباشرة ببلاد الشام أكثر من غرب أوربا الذي لم يعرف بلاد الشام سياسياً وعسكرياً سوى على عصر الحروب الصليبية، حقاً حصل بعض ملوك غرب أوربا وأمراؤه على بعض الرفات ولكن غالباً ما حدث ذلك من خلال الإمبراطورية البيزنطية[١٩] التي سنت لنفسها في إطار الدبلوماسية البيزنطية استخدام الهدايا – بما

في ذلك الرفات – لكسب قلوب المحيطين بها[٢٠] "...وتعويضاً على جهوده[٢١] منحوه[٢٢] أعطيات ثمينة...وقد رفض أخذها...وعندما ترجوه بأن يأخذ هدية ما، طلب أن يُعطى آثاراً مقدسة، ولهذا فتحوا كنوزهم وأعطوه بعض الشوك من تاج الرب وواحداً من مسامير الصليب المقدس وقطعة كبيرة من الصليب نفسه ومنديل الرب وقميص العذراء المُباركة وأقمشة القماط...وقطعة من مزود الرب وسنان الرمح الذي طُعن به جنب الرب، وذراع القديس سمعان وأشياء أخرى كثيرة...وقد جلبهم معه إلى بلاده ألمانيا..."[٢٣]، وهذا وغيره مما يُعزز افتراض نقل كثير من الرفات إلى الغرب من خلال الإمبراطورية البيزنطية[٢٤].

وعلاوة على ذلك فقد نُقل بعضها الآخر إلى الغرب عن طريق الهدايا من الشرق مباشرة، ولعل أكبر دليل على ذلك توزيع رُفات بعض الأطفال الأبرياء في جميع أنحاء أوربا "...وحينما فتش بعض الحجاج في الكهف الذي دُفنت فيه أجساد الأبرياء الذي قتلهم هيرود لدى بحثه عن المسيح بينهم فإنهم لم يجدوا منها شيئاً..."، وعُلل ذلك بأن "...المؤمنين قد قاموا فيما مضى منذ زمن طويل بنقلهم، وآثار هؤلاء الأطفال الأبرياء موزعة في جميع كنائس العالم..."[٢٥].

وعلى مستوى الأفراد فقد سعى بعض الحجاج المترددين على الشرق إلى الحصول على الرفات والمتعلقات المقدسة التي صارت تجارة رائجة في مواسم التردد على المزارات الدينية المسيحية في الشرق[٢٦] "...وحصل[٢٧] على قطعة من الصليب المقدس من واحد من الشاميين الذين كانوا يحرسون الضريح..."[٢٨]، وأقر المؤرخون أن ذلك الحرص كان له ما يُبرره بحصول ذلك الحاج على مكانة اجتماعية كبيرة في الغرب فور عودته "...وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بُنى له الكنيسة ويُجعل في مذبحها..."[٢٩].

وعلى عصر الحروب الصليبية نُقلت بعض الرفات والمتعلقات الشرقية إلى مدينة بيت المقدس بمجرد استقرار الصليبيين فيها[٣٠]، ولكن غالباً ما نُقل بعضها فيما بعد إلى أوربا سواء من خلال السرقات التي كانت منتشرة وشائعة – بل وتم تبريرها[٣١]– أم أنها نُقلت على يد بعض الملوك على ما فعل ملك بيت المقدس فولك

أوف أنجو الذي "...وضع في كنيسة القديسة مريم العذراء في أمبويز قطعة من صليب المخلص وجذاذة من الحبل الذي رُبطت به يدي المسيح..."[٣٢].

وظل نقل الرفات والمتعلقات المقدسة مستمراً على ما فعل هنري الثالث (١٢١٦-١٢٧٢م) باستقدامه قارورة الدم المنسوب إلى السيد المسيح - عليه السلام - من الشرق من خلال بعض الأمراء وما ترتب على إحضارها من ردود فعل واسعة في أوربا[٣٣]، ويبدو أن لويس التاسع Louis IX of France أخذ من فلسطين تمثالاً أسوداً مشابهاً لتمثال العذراء الأسود روكومادور Rocamadour وأحضره إلى لي بوي Le Puy عام ١٢٥٤م[٣٤]، وقامت بعض المدن التجارية بدورها في نقل الرفات بحيث انتقل معها صراعها الأوربي على الرفات إلى الشرق[٣٥].

ومع نهاية القرن الثاني عشر وازدهار التجارة في الكيانات الصليبية - التي فتحت سوقاً كبيراً لتجارة الرفات والمتعلقات المقدسة - انتقل كثير إلى الغرب مثل بعض أجزاء جسد القديسة كاثرين السكندرية St.Catherine of Alexandria، ولأجل هذا وغيره فقد حظي عصر الحروب الصليبية بسمة كثرة نقل الرفات بكافة درجاتها إلى أوربا وبخاصة المتعلقات المقدسة من الدرجتين الثانية والثالثة نظراً لسهولة الحصول عليها، فنُقلت الحجارة المقدسة المنتزعة من قبة الصخرة والزيوت المقدسة وحليب العذراء وصلصال بعض حقول دمشق، ناهيك عن قطع الخشب المنسوبة إلى صليب الصلبوت[٣٦] وما إلى ذلك من متعلقات نقلها الحجاج والملوك ورجال الدين والعامة لأسباب دينية واجتماعية واقتصادية وصحية.

وظل حرص الحجاج قائماً فيما بعد ولفترة طويلة تالية لعصر الحروب الصليبية للحصول على الرفات المقدسة حتى وإن أدى ذلك إلى سرقتها في لحظة سهو من القائمين على حراستها "...لم يرفع راعي الدير الذي وقف إلى جانبي ناظريه عني، وراقب يدي بعناية كبيرة وذلك خشية سرقة أي من الرفات آثار المقدسة، لأنه بالفعل جرت سرقة كثير من الآثار المقدسة في ماضي الأيام من قبل الحجاج، أو أُخذت بناء على التماسات الأباطرة والأساقفة والملوك، وجرى إعطاء الكثير وفق هذه الطريقة، حتى أن المتبقي الآن من الجسد المقدس أقل من النصف، ولأنهم يعرفون

هذا فإنهم يتولون حراسته بكل عناية من اللصوص ولا يُمكن الآن لأعمال التوسل أو الرشوة أن تُقنعهم بالتخلي عن أي قطعة..."[٣٧].

وفي ظل حالة الترقب والتلهف تلك على كل ما يمت إلى القداسة بصلة حدثت عمليات تلفيق وتزوير وخداع كثيرة سواء من قبل رجال الدين من الصليبيين الذين مارسوا الخداع على الحجاج أو من قبل العامة من الصليبيين والمسلمين، وظلت عمليات الخداع والغش قائمة لفترة طويلة فيما بعد، وقد حرص جيوبرت أوف نوجنت على التنديد بالولع المفرط بالقدرات الفائقة التي تتمتع بها رُفات ربما لا يُعرف أصحابها، وشدد على ضرورة التحلي بالحرص الذي يجعل جمهور المؤمنين يُفرقون بين الرفات الحقيقية والزائفة[٣٨]، ولكن يبدو أن كلمات جيوبرت هو وغيره لم تأت أُكلها بدليل نهب صليبي الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م لرفات القسطنطينية ونقلها إلى الغرب[٣٩]، وخصوصاً أن القانون الكنسي اشترط وضع الرفات والمتعلقات المقدسة مجزأة داخل المذابح كجزء من طقوس التكريس في الكنائس[٤٠].

وقد حرصت البابوية على المستوى الرسمي فيما بعد في مجمع اللاتيران الرابع ١٢١٥م على تقنين هذه الأوضاع حينما نصت المادة ٦٢ على منع تداول – أو بيع أو شراء – أي رفات جديدة حتى تنص البابوية صراحة على عدم زيفها[٤١]، وقد يُفسر هذا القرار المتأخر بوصفه جاء تالياً زمنياً لاستيلاء الصليبيين على القسطنطينية عام ١٢٠٤م وتشبع الغرب بالرفات التي نهبها قادة الحملة الصليبية الرابعة وجنودها من تلك المدينة، بحيث لن يُواجه قرار البابا على المستوى الشعبي ما كان يحتمل مواجهته قبل ذلك.

وثمة نوع آخر من نقل الرفات والمتعلقات لم يكن للبابوية سيطرة عليه جاء هذه المرة من قبل المسلمين ليس لتقديسها وتوقيرها وإنما لمنع الصليبيين من التعبد لها، وبخاصة حينما علم المسلمون مقدار القوة الروحية التي كان يتحلى بها الصليبيون بوجود تلك الرفات معهم، وعليه فقد حرص صلاح الدين على منعهم من الصليب الحقيقي فور الاستيلاء عليه في معركة حطين[٤٢]، وقد أشار الأصفهاني بشكل غير مباشر إلى مقدار الفزع الذي أصاب الصليبيين لمجرد فقدانهم للصليب ولأجل ذلك

حرص المسلمون على حرمان الصليبيين من كافة أسلحتهم المادية والروحية أو لمساومة الصليبيين عليها لأجل المال، أو لبيعها للصليبيين(٤٣).

وعلاوة على ذلك فقد وظف المسلمون تلك الرفات للمساومة عليها لقاء تحرير الأسرى المسلمين على ما حدث في أغلب الاتفاقات التي عُقدت بين الطرفين منذ الحملة الثالثة وحتى الحملة السابعة(٤٤)، وربما لأجل ذلك سعى الصليبيون إلى التخلص من تحكم المسلمين في مصير بعض الرفات والمتعلقات فنقلوها معهم وهم خارجون من المدن المُحاصرة من قبل المسلمين "...فقد تبع هؤلاء جميعاً البطريرك في رتل طويل، وهم يحملون التماثيل والصلبان والآثار المقدسة وأوعية القرابين التي كان من الممكن أن تُداس بأقدام المسلمين..."(٤٥)، بينما قدم بعضهم أفكار غاية في الخطورة حينما اقترحوا نقل الأماكن المقدسة إلى أوربا قطعة قطعة على ما ذهب فكر بعض الصليبيين عقب انتصار المسلمين على الصليبيين في حطين ودخول المسلمين مدينة بيت المقدس(٤٦).

<u>وعلى المستوى السياسي</u> ونظراً للقلق الدائم للكيانات الصليبية في الشرق بوصفها كيانات ضعيفة ومواردها البشرية والاقتصادية محدودة وظهير الصليبيين الاستراتيجي والعسكري هش مقارنة بجيرانهم من المسلمين الذين كانت مواردهم في ازدياد وصفوفهم غالباً موحدة فقد سعى الصليبيون إلى توظيف كافة وسائل الدعاية السياسية للضغط على غرب أوربا للحصول على دعمه المستمر.

وكان لتوظيف الرفات في هذه الحالة وجهان: أحدهما يسعى إلى ترسيخ الانتماء إلى الشرق الذي نشأت فيه الكيانات الصليبية بوصفها امتداداً للتراث المسيحي تاريخياً ودينياً بتغليب الطابع المسيحي عليها من خلال الحديث عن الرفات الكثيرة الموجودة في أماكن كثيرة في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس وبيت لحم والناصرة واللد والجليل ودمشق والرها وما إلى ذلك من أماكن أشار المؤرخون والرحالة – الذين غلب على بعض كتاباتهم الصفة الدينية – إلى احتواء تلك الأماكن على الرفات والمتعلقات المقدسة وعدوها جميعاً مقدسة، ومن ثم دعوا إلى شحذ الهمم إليها من خلال التشويق إلى زيارتها وإثارة العواطف الدينية من خلال سرد القوى الخارقة

والمعجزات التي تحققت قديماً وحديثاً في تلك المزارات، وهذا مما رسخ المفهوم الأوربي في ارتباط تلك الأماكن بالمسيحية التي يحميها الغرب بحملاته الصليبية[٤٧].

ويندرج في الإطار ذاته حملات الترويج التي قادها بعض المؤرخين لبعض المتعلقات في الشرق وارتباط ذلك بظروف سياسية معينة، مثل قصص اللوحة الزيتية والزيت المقدس والدهن المقدس واللبن المقدس والينابيع المقدسة والصخرة المقدسة والطين المقدس ناهيك عن مواضع الرفات المقدسة ذاتها وكيفية حفظها وما إلى ذلك من روايات روجت لرفات ومتعلقات مقدسة بعينها، وقد روجت بعض الروايات لبعض الأماكن والأنهار ودللت على وجود قوى مقدسة بها بما يدفع لزيارتها والتوافد عليها[٤٨].

وقد أُضيفت بعض التفاصيل التي تُحرر من يخاف على نفسه بما يتناسب مع تفاصيل الرواية، كأن يُروج بعضهم لطين حقل دمشق ونظراً لأن دمشق تحت الحكم الإسلامي فقد أضاف المروج بأن المكان الذي يحوي ذلك الطين لا يعيش به أي مسلم لأنهم إن عاشوا بالمكان يموتون خلال سنة "...وعلى بُعد عشرة أميال عن دمشق توجد مدينة صيدنايا[٤٩] التي يوجد فيها الصورة المبجلة لمريم العذراء المجيدة التي جُلبت من القدس، وقد تحولت هذه الصورة كلياً إلى تكوين جسدي، لذلك هي لا تتوقف ليلاً أو نهاراً عن إعطاء الزيت المقدس الذي يحمل منه الحجاج الذين يأتون إلى هناك من كل جزء من العالم قوارير صغيرة من زجاج، وليس بإمكان أي مسلم العيش في هذه المدينة، فهم دوماً يموتون في غضون سنة"[٥٠].

واستخدمت قصة التمثال ذاته للترويج للقدرة العلاجية التي يضفيها على زوراه بعد تقديم النذور بالطبع بما في ذلك بعض المسلمين – مخالفاً بذلك ما ذهب إليه مؤرخ الرواية السابقة – وذلك على قول إرنول: "...وقد مسح كثير من الناس أنفسهم به فلم يُعانوا بعد ذلك من أي مرض من الأمراض، ولم يتوقف هذا الزيت عن الصدور مطلقاً..."[٥١]، وكان هذا يعني من جهة أخرى كثرة النذور بكثرة أعداد المقبلين على المكان ومن ثم الرخاء الاقتصادي للمنطقة[٥٢].

وقد تستخدم الرواية استخدام آخر يحرص معه مروجها على توظيفها بصورة تنم عن دراية المروج بالأحداث المحيطة وحرصه على التدخل لمعالجة ما قد يراه من خلالها، ولعل ما يوضح ذلك توظيف الرواية السابقة بصورة أكثر شمولاً حينما عرضها روجر أوف وندوفر- ولكن بتفاصيل أكثر- مُشيراً إلى تمثال السيدة مريم العذراء سالف الإشارة (في اليوم الثالث من عيد الفصح من عام ١٢٠٤م)، وقد عاد للخلف للحديث عن قصة التمثال الذي أسبغ عليه مسحة إعجازية ممثلة في طلب راهبة في صيدنايا من أحد الفرسان الذين قدموا من القسطنطينية إلى الشرق لزيارة الأماكن المقدسة أن يجلب معه في طريق عودته من القدس تمثالاً معيناً لوضعه في مصلاها، وكاد الفارس ينسى ولكنه سمع صوت ملاك يحثه على الوفاء بوعده للراهبة فعاد وأحضر الصورة ثم طمع فيها لنفسه وركب البحر عائداً إلى وطنه، ولكن السفينة عادت مُجبرة بفعل الرياح وأدرك الفارس أن الرسالة موجهة له بعدما أيقن أن ما يحمله له قيمة إعجازية كبيرة، فعاد به إلى الراهبة ومنحها إياه ومنذ ذلك الوقت قرر ذلك الفارس البقاء في الشرق قريباً من التمثال، بينما تطورت أسطورة التمثال لتُصبح على الشكل الذي تحدثنا عنه مسبقاً(٥٣).

وأظن أن هدف مثل هذه القصة في ذلك التوقيت ربما لأنه نتج عن استقرار اللاتين في القسطنطينية بعد عام ١٢٠٤م قلة عدد الأوربيين المترددين على الشرق بعد أن أصبحت القسطنطينية - التي همّ فارس تلك القصة بالذهاب إليها - الوجهة التي جذبت الأعداد الغفيرة من هؤلاء إليها، وربما لأجل ذلك وُظفت تلك القصة لتبرير فضل الشرق وما له من تأثير ديني بمعجزاته ورفاته ومُتعلقاته المقدسة المصطبغة بصبغة دينية حالمة، وبخاصة الربط بين رحلة إياب ذلك الفارس إلى وطنه في القسطنطينية وبين اضطراره للعودة ومن ثم الإقرار بما للشرق من قوة عاطفية دينية وتفضيله هو ذاته على وطنه في القسطنطينية(٥٤).

بينما وُظف الوجه الثاني لإثارة حمية الأوربيين حينما خبت حماستهم وقلت مساعداتهم إلى الصليبيين في الشرق لحض الغرب بملوكه وفرسانه وعامته للدفاع عن تلك المقدسات بادعاء اعتداء المسلمين عليها، وبخاصة الضريح المقدس وكنيسة

القيامة وقبة الصخرة وازدراء المسلمين للصلبان وبعض الرموز المسيحية[٥٥]، وذلك بهدف شحذ همم الغرب مرة أخرى لمساعدة الصليبيين في الشرق.

وكثيراً ما علت تلك النبرة في الأحداث الكبرى التي كانت تُفزع الصليبيين وتُرهبهم، على غرار ما أعقب استرداد عماد الدين زنكي لمدينة الرها[٥٦]، أو خلال محاولات عموري الأول ملك بيت المقدس السيطرة على مصر والربط بين الخطر الناجم عن ضياعها وبين ضياع كنيسة القيامة والقبر المقدس[٥٧]، وما أعقب معركة حطين من استرداد المدن الساحلية وبيت المقدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٥٨] واستعادة الخوارزميين لبيت المقدس عام ١١٤٤م[٥٩] وغيرها من المناسبات التي كان يُرافقها كثرة المراسلات التي بعثها قادة الصليبيين في الشرق إلى الغرب لاستفزازه على تقديم المساعدة[٦٠].

ولعل من أكثر الدعايات السيئة التي صدرت إلى الغرب وكان لها دور في استفزازه – ومن ثم خروج الحملة الصليبية الثالثة – تصوير صلاح الدين واقفاً بفرسه على قبر المسيح – عليه السلام – عقب دخوله بيت المقدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[٦١] ووظف روجر أوف وندوفر الرفات المقدسة بشكل مباشر في الدعاية السيئة ضد صلاح الدين [٦٢].

وقد أشار الرحالة فيلكس فابري في محاولة لكسب التأييد الغربي من خلال الدعاية السيئة ضد المسلمين وأعمالهم ضد الصخرة المقدسة إلى قيام المسلمين بالتبول عليها لأنهم يستشيطون غضباً حينما يرون الفرنج يقبلونها، فهذه الإشارة لا تعدو أن تكون توظيفاً سياسياً ماكراً للرفات المقدسة للدعاية ضد المسلمين، لأنه ادعى أن المسلمين يفعلون هذا التدنيس بالصخرة المقدسة وببقية الأماكن المقدسة الأخرى[٦٣]، أي أن مجرد الإشارة إلى إهانة المسلمين لأي من تلك المقدسات يُعد انتهاكاً صارخاً للرفات والمتعلقات المقدسة التي يُقدسها الأوربيون على ما قدمه بعضهم في رواياتهم[٦٤].

ولا ريب أن أمثال تلك الروايات كان لها أصداء غاية في الخطورة في الغرب، فكان من نتائج استيلاء صلاح الدين على الصليب ضمن عوامل أخرى أنه

"...لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة...إلا جُهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها وتحرك ساكنها وبرز كامنها...ونادوا في نواديهم بأن البلاء دهم بلادهم، وإن إخوانهم بالقدس أيارهم الإسلام وأبادهم..."[٦٥].

كما صُدرت تلك الدعاية ووظفت في خضم التفاوض بين لويس التاسع ملك فرنسا وبين الخان المغولي في المفاوضات السابقة على معركة عين جالوت بحيث جاء في رد خان المغول على لويس التاسع لطلب المساعدة ضد المسلمين "...لقد قدمنا مع قوة وأوامر قضت بإعفاء جميع المسيحيين من العبودية ومن الجزية، ومن الإزعاج والمضايقة، ومن الأشياء المشابهة، وأن يُنظر إليهم بتشريف وتبجيل، وأن لا يأخذ أحد منهم ممتلكاتهم، وأن يُعاد بناء الكنائس المُدَمرة مرة ثانية، وأن تُعاد الألواح، وأن لا يتجرأ إنسان علي منع هذه الأشياء، وأن يؤدوا صلواتهم بسلام، وبقلب مطمئن في جميع أرجاء مملكتنا..."[٦٦].

وامتد توظيف الرفات والمتعلقات المقدسة إلى محاور غاية في الخطورة، امتداد للتوظيف الأوربي لها حينما صارت الرفات والمتعلقات تمثل في بعض الأحيان قوة سياسية وشرعية لحاملها، وهذا ما فعله جودفري أوف بويون – وإن كان رمزاً – حينما ارتدى تاجاً من الشوك واكتفى بلقب حامي حمى الضريح المقدس أسوة بالسيد المسيح – عليه السلام، وقد كفل له ذلك – مع عوامل أخرى – شرعية جعلت حكمه يخلو من المعارضة، هذا في الوقت الذي حرص فيه من تبعه من الملوك على الخروج الدائم إلى ساحات المعارك ومعهم إما الحربة المقدسة أو الصليب المقدس "... لأنه لا يثق في قدرته الذاتية ولا في عدد رجاله الكثيرين" [٦٧].

ويؤكد ذلك سعى الماركيز كونراد دي مونتفرات في مفاوضاته مع الملك ريتشارد قلب الأسد بخصوص مشاركته في الحملة ومساعدة الصليبيين إلى اقتسام الغنائم والصليب المقدس في حال استعادته من صلاح الدين، وقد هدف الماركيز إلى الحصول على قطعة من الصليب لتزكية طموحاته في أن يكون ملكاً للصليبيين في الشرق باعتبار امتلاك الصليب أو قطعة منه بمثابة أحد رموز السيادة الملكية[٦٨].

بينما مثل الضغط الشعبي على الملوك والأمراء أحد أقوى العوامل التي ألزمت السلطة السياسية بتلبية طموحات رعاياهم فيما يخص الرفات والمتعلقات المقدسة وعلى قدر المخاوف الكثيرة التي خالجت كثير من رجال الدين من خروج الصليب بصحبة الملك أو من ينوب عنه إلى طرابلس وأنطاكية والرها بقدر حالة الفرح التي كانت تغمر الجميع حينما يعود الصليب إلى بيت المقدس مرة أخرى ..."، حيث يخرج الجميع من المدنيين والعسكريين ورجال الدين إلى استقباله "...وهكذا...استقبلنا الصليب المقدس في فرح عندما وصل القدس..."، وأحياناً يكونون في انتظاره على أبواب المدينة التي تُزين لأجل ذلك الغرض، ثم يدخل الناس بصحبة الصليب وهم يُهللون ويُنشدون الأناشيد الدينية حتى يستقر الصليب في موضعه(٦٩).

وبالقدر نفسه وللحرص عليه وللخوف من سرقته فإن الصليبيين كانوا يعملون على حراسة الصليب بشكل دائم في بيت المقدس وخارجها، وكثيراً ما كثُرت الحراسة في أثناء عودته سابقاً الجيش إلى بيت المقدس، وتُعين له الحراسة المشددة في اللقاءات العسكرية التي يحضرها(٧٠). أما بقية الرفات الجثمانية فقد حرص الصليبيون على حمايتها بوضع أبواب حديدية عليها؛ حتى لا تُسرق، وبالرغم من أن غرفة حفظ الرفات المقدسة في دير جبل صهيون كانت مهلهلة فقد وضع القائمون على الدير أبواباً حديدية وكلاباً لحراسة الدير ومقتنياته من أي هجوم(٧١)، كما أشار الرحالة فورزبورج إلى حفظ رفات القديس شاريتون كاملاً وكان يعرض على الحجاج دون أن يتعرض لأذي(٧٢).

واتسع نطاق تَرظيف الرفات في النواحي العسكرية أكثر مما وظفت للأغراض الأخرى، وكان لترديد نسبة انتصار الصليبيين في معركة ما إلى رفات القديسين والمتعلقات المقدسة له أثر أكبر في النفوس الأمر الذي يجعل من التوظيف العسكري للرفات يحتل المرتبة الأقوى والأكثر شيوعاً.

ولكن ثمة إشكالية في التوظيف العسكري للرفات كثيراً ما نطالعها بين سطور المصادر، حينما يُنسب أي انتصار إلى قوة صليب الصلبوت أو رفات أحد

القديسين، وبخاصة أن الصليب كان يتقدم أغلب المعارك التي خاضها ملك بيت المقدس حتى معركة حطين التي أُسر فيها، وطالما انتصر الصليبيون نُسبت النتيجة إلى قوة الصليب أو غيره من الرفات، بينما تختفي تلك الصبغة الدينية التي تُغلف الرفات بالقوة حينما يُهزم جيش الصليبيين[٧٣]، غير أن تلك الصبغة الدينية كانت واحدة من رموز الكتابة – سواء الدينية أم التاريخية – في العصور الوسطى.

وقد ارتبط ظهور القوى الخارقة للرفات في مساعدة الجيوش الصليبية عقب ظهور ما اصطلح على تسميته بالإخفاقات الأيديولوجية لدى الصليبيين، وحينها تظهر معجزة ممثلة في الحربة أو الصليب أو رفات هذا الشهيد أو ذاك القديس أو ظهور شبح أحد الفرسان وما إلى ذلك كي يتحول بعدها الإخفاق إلى نجاح والهزيمة إلى انتصار[٧٤]، وأكبر مثال على ذلك قصة الحربة المقدسة في أنطاكية خلال أحداث الحملة الصليبية الأولى، الجيش الصليبي من كبوته وتغلبه على جيش كربوغا المرابط خارج مدينة أنطاكية[٧٥].

ويعود توظيف الرفات المقدسة عسكرياً إلى أوائل الدعوة للحملة الصليبية الأولى حينما كانت شارة الصليب كرمز للخلاص والفداء أحد أهم رموز تلك الحملة والدعوة إليها[٧٦]، علاوة على حرص الصليبيين على حمل رفات بعض القديسين الشرقيين في أثناء تحركهم إلى بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى "... شعرنا أن القديس جرجس سيكون شفيعنا عند الرب، وسيكون قائدنا المخلص من خلال موطن إقامته"[٧٧].

وحينما تحرك الملوك فيما بعد لقيادة الحملات الصليبية فيبدو أن بعضهم تبرك بالرفات المقدسة قبيل خروجهم من أوربا مثلما فعل الملك لويس السابع في حملته على الشرق من زيارة رفات القديسين في القسطنطينية وتبركه بها[٧٨]، وعلى ما فعل لويس التاسع الذي تبرك بقميص[٧٩] المسيح– عليه السلام – قبيل تحركه إلى الشرق.

ومن جهة أخرى كانت الإشارة إلى خطورة انتصار المسلمين على الصليبيين ونتيجته على المقدسات والرفات من أهم التوظيفات الناجمة عن الاحتكاكات العسكرية

بين المسلمين والصليبيين[٨٠]، ولعلنا نلمس هذه النبرة وارتفاعها مع عصر الملك عموري الأول ثم على عصر صلاح الدين وانتصاراته الكبرى، ناهيك عما حدث فيما بعد في العصر المملوكي حينما كانت المعاهدات التي تفاوض لأجلها المغول والصليبيين لكيفية التصدي للمسلمين تناقش أوضاع المقدسات والرفات والمتعلقات المقدسة[٨١]، وهذا يعني أن الصليبيين قد حاولوا الإفادة من مكانة الرفات في نفوس الأوربيين لحثهم على تقديم المساعدة.

وقد خطف صليب الصلبوت الأضواء من كافة الرفات والمتعلقات وبخاصة في المجال العسكري بحيث بات وجوده على رأس الجيش أو غيابه مبرراً لمشاركة كثيرين أو إعراضهم[٨٢]، وقد كفل حمل الصليب وبقية الرفات في المعارك من وجهة نظر المؤرخين المعاصرين من الصليبيين الانتصار في المعارك التي خاضها الجيش الصليبي[٨٣]، حينما كانوا يُشيرون إلى وجود قوى روحية كانت تُحارب إلى جانب الصليبيين ضد الأعداء، وبالرغم من منطقية حمل الصليب والرفات في مواجهة المسلمين بوصفهم أعداء للصليبيين فإن ملك بيت المقدس لم يتورع عن حمل الصليب ضد بعض الصليبيين على ما فعل الملك بلدوين بحمله الصليب ضد أمير طرابلس الذي جاهر بعصيان الملك[٨٤]، وحمل الملك للصليب على تلك الشاكلة كان له تأثير يصب في امتلاكه لعنصر من عناصر السيادة المعنوية ضد خصومه ممثلاً في صليب المسيح – عليه السلام، وقد اختص ملك بيت المقدس بمرافقة الصليب في المواجهات العسكرية[٨٥]، وفي حالة غياب الملك – سواء لأسره على ما حدث مع بلدوين الثاني أو لمرض الملك أو غيابه عن المملكة كما الحال في فترة عصر عموري الأول الذي غاب كثيراً في مصر – فقد تكفل من يمثله أو ينوب عنه بمرافقة الصليب[٨٦]، بيد أن مرافقة الصليب للجيش وبخاصة إلى الأماكن البعيدة عن بيت المقدس مثل أنطاكية أو الرها كان يُقابل بمعارضة شديدة من بطريرك بيت المقدس [٨٧].

أما من تحمل مسئولية رفع الصليب إلى ميادين المعارك فبطريرك بيت المقدس[٨٨] بوصفه يشغل أسمى مكانة دينية بين الصليبيين في الشرق والمسئول عن

كنيسة بيت المقدس والضريح المقدس، ناهيك عن كونه ممثل البابوية الديني في بيت المقدس والشرق [٨٩] .

وقد كفل حمل الملك للصليب وبخاصة في العقود الأولى من الوجود الصليبي في بلاد الشام التفاف الصليبيين حول الملك، إذ يُشير الأصفهاني إلى أن مجرد رفع الصليب وقت التعبئة كان كفيلاً بجمع أعداد غفيرة من الصليبيين وذلك تأهباً للقاء حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ومنه أيضاً "...فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد من يومهم العصيب..."[٩٠]، ولكن سرعان ما تراجعت تلك الروح نتيجة لعدد من المتغيرات السياسية والعسكرية التي ألمت بالصليبيين في الشرق[٩١].

وفي المقابل عُد غياب الصليب عن المعركة نذير شؤم على الصليبيين، وإيذاناً بهزيمة لا قبل لهم بها، في الوقت الذي حرص فيه بعض المؤرخين على ما فعل المؤرخ المجهول صاحب أعمال الفرنجة وفولشر أوف شارتر على عدم الإشارة إلى وجود الصليب في بعض المواجهات التي هُزم فيها الجيش الصليبي[٩٢]، وقد فُسر تراجع الكيانات الصليبية في الشرق بعد معركة حطين واسترداد المسلمين لبيت المقدس بوصفه نتيجة لفقدان الصليب "...وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم...فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك..." [٩٣]، وأيضاً "...ولم يُؤسر الملك حتى أُخذ صليب الصلبوت...فهلكوا قتلاً وأسراً وملكوا قهراً وقسراً..."[٩٤]، ولذا عد الأصفهاني استيلاء المسلمين على الصليب في معركة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م من أشد ما آلم الصليبيين وكسرهم على الأقل من الناحية المعنوية[٩٥].

وقد يُستشف من حرص الصليبيين في معاهداتهم مع المسلمين في الفترة التالية للحملة الصليبية الثالثة وحتى الحملة الصليبية السابعة على استعادة الصليب لخير دليل على إحساسهم بفقدان أحد أهم عوامل قوتهم في الشرق [٩٦].

ووُظفت رفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة في النواحي الدبلوماسية على نطاق محدود بعكس الحال في أوربا[٩٧]، وبخاصة أن تفاوض الصليبيين لاستعادة الرفات كان بمثابة نقطة ضعف للمفاوض الصليبي. وبالرغم من ذلك فقد وُظفت

الرفات في عدة نواحي دبلوماسية، وقد ترتب على الاستماع لصوت العقل "...تصافى الزعماء بعضهم مع بعض..."، وبالرغم من حمل ملك بيت المقدس الصليب في إخضاعه لبونز أمير طرابلس[٩٨] فقد أعزى فولشر أوف شارتر إلى بركة الصليب تهدئة الأوضاع بين الطرفين[٩٩].

بينما قدم فابري نصاً مهماً جاء عرضاً خلال حديثه عن الأحكام والأوامر التي ينبغي أن يقوم بها الحجاج في زيارتهم للأماكن المقدسة وبخاصة في كنيسة الضريح المقدس، وقد أورد أحد البنود التي نصت على السماح للحجاج بزيارة بيت المقدس على ما أشارت أغلب المصادر التي عالجت تاريخ تلك الفترة، بيد أن فابري أضاف توضيحاً تضمن منع كسر أي شيء من الأماكن المقدسة، وقد أسلفنا الإشارة إلى قيام الحجاج بتعمد كسر بعض الحجارة من قبة الصخرة بوصفها رفات مقدسة، ولا غرو أن سريان تأكيد مثل هذا البند - في الاتفاقات والمعاهدات - حتى زمن فابري في القرن الخامس عشر يؤكد أن المسلمين كانوا يتابعون ذلك باستمرار وأن متابعتهم تعكس تكرار عمليات الكسر[١٠٠].

وفي فترة متأخرة في العصر المملوكي فقد شملت المفاوضات التي استهلها الملك لويس التاسع مع خان المغول تعهد الأخير بحماية المقدسات المسيحية وعدم التعرض لها بأي صورة[١٠١]. ولكن على جانب آخر كانت محاولات الصليبيين التفاوض مع المسلمين لاستعادة الرفات المقدسة من ناحية أو تضمين استعادة بعض الرفات في بعض المعاهدات الأخرى تصب دوماً في صالح الطرف الإسلامي وليس الطرف الصليبي، وبالنسبة للإشكالية الأولى فقد أورد روجر أوف وندوفر ما يفيد قيام صلاح الدين بجمع بعض الرفات في صناديق كبيرة لحرمان الصليبيين منها، وهنا فإن تدخل الصليبيين لاستعادة تلك الرفات كلفهم مبلغاً كبيراً نظير استعادتها[١٠٢].

وفي السياق ذاته الذي هدف إلى توظيف الرفات والمتعلقات في المفاوضات بين المسلمين والصليبيين فقد قدم العماد الأصفهاني نصاً مهماً يعود إلى مفاوضات صلح الرملة عام ١١٩٢م، والمعروف أن الصلح قد تضمن إتاحة الفرصة للزيارة أمام الصليبيين إلى بيت المقدس، ناهيك عن طلب بعضهم توقير الصليب وتقديسه،

وقد أوفى السلطان بما عاهد ريتشارد عليه، بيد أن الأخير حاول الإفادة من ذلك بمحاولة تقليل فرص الزيارة أمام كافة الصليبيين من خلال عدم السماح لأحد بالزيارة سوى من معه خطاب مباشر من ريتشارد، وحينما ناقش صلاح الدين ذلك الأمر مع مستشاريه فإنهم فطنوا إلى أن ريتشارد يهدف إلى خلق مشكلة لدى الصليبيين على حساب صلاح الدين، وهي أن يكون هو مانعهم عن الزيارة على الرغم من أن الصلح يسمح بها[١٠٣].

بينما ظل الصليبيون يسعون سعياً حثيثاً لاستعادة صليب الصلبوت من قبل صلاح الدين وخلفائه ولفترة طويلة فيما بعد، فحينما اشتد حصار الحملة الثالثة لمدينة عكا حدثت بعض المفاوضات بين صلاح الدين وبين قادة الحملة بهدف الصلح على عكا، على شروط أن يستعيدوا كافة البلاد وإطلاق الأسرى، ولكنه عرض عليهم تسليم عكا وإطلاق الأسرى فلم يقبلوا فحينها عرض عليهم استعادة صليبهم ولكن لم يتم الأمر أيضاً "...وسُمح لهم برد صليب الصلبوت إليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا..."[١٠٤]، ثم أورد امبرويز وغيره أن المسلمين اقترحوا تسليم الصليب مقابل فك الحصار الذي فرضته الحملة الثالثة على مدينة عكا[١٠٥]، بيد أن ذلك لم يُكلل بالنجاح أيضاً، وحينما سقطت عكا في أيديهم بعد قليل فإنهم اشترطوا لتأمين خروج القادة ضمن الشروط المعروفة أن يُرد للصليبيين صليبهم[١٠٦].

وعلى ما يبدو فإن صلاح الدين لم يكن أمامه خيار آخر سوى الإذعان من أجل تخليص رجاله من الأسر وجهزه بالفعل مع المال والأسرى لإجراء التبادل، وحينما سرى إلى الصليبيين إشاعة مفادها أن الصليب قد بُعث به إلى دار الخلافة فقد أصر رسلهم على ضرورة رؤية الصليب كي لا يكون في ذلك حيلة عليهم "...وظنوا أن صليب الصلبوت قد أُرسل إلى دار الخلافة فليس له وجود، فسألوا إحضاره وهم شهود، فلما أُحضر خروا له ساجدين وأقروا به شاهدين وعرفوا أن الشرط بالوفاء مقرون..."، ولكن ولأسباب كثيرة متداخلة لم يحدث التبادل وقام ريتشارد بقتل الأسرى المسلمين على مرأى ومسمع من جيش صلاح الدين[١٠٧]، وحينها قرر صلاح الدين رد الأسرى الصليبيين إلى دمشق، وأما الصليب فإنه أمر بأن يُعاد "...إلى

الخزانة لا للإعزاز بل للإهانة، فإن غيظ الكفار بحفظنا للصليب شديد والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد، وقد بُذل فيه الروم ثم الكرج بذولاً، وأنفذوا بعد رسول رسولاً فما وجدوا قبولاً ولا صادفوا سولاً..."[١٠٨].

ولشدة ما آلم الصليبيين من فشلهم في مفاوضاتهم مع المسلمين لاستعادة الصليب ولتبرير فعلتهم بقتل الأسرى دون مبرر فقد طاب لامبرويز اتهام المسلمين بالمماطلة في إعادة الصليب لأنهم لم يجدوه في الوقت الذي يؤكد بعض الحجاج الصليبيين أنهم رأوا الصليب لدى المسلمين، ولكن طاب لأمبرويز اتهام صلاح الدين بترك أسراه تُقتل في أيدي الصليبيين لا لشيء سوى لأنه كان يسعى لاستغلال الصليب للحصول على صلح أكثر موائمة[١٠٩].

وظلت مفاوضات الصليبيين للحصول على الصليب قائمة فيما بعد، وليس أدل على شدة حرص الفرنج على استرجاع الصليب من حالة الفرح الشعبي حينما أُعلن مشروع زواج العادل من أخت ريتشارد وكان من شروط الزواج فداء الأسرى من الجانبين واستعادة الصليبيين للصليب، ولكن خاب ظنهم حينما فشل المشروع نتيجة لإصرار الصليبيين على ضرورة تنصر العادل وهنا رُفض العرض برمته[١١٠]، هذا في الوقت الذي تضمنت فيه أغلب بنود المعاهدات التي عُقدت بين الأيوبيين والصليبيين بنداً يهدف إلى استعادة الصليب، من ذلك ما جاء في الصلح الذي استتبع الحملة الصليبية الخامسة التي قادها ملك بيت المقدس حنا بريين "...وعرض عليهم إعادة الصليب الحقيقي الذي كان صلاح الدين قد استولى عليه...وأن يُطلق سراح جميع الأسرى..."[١١١]، بيد أنهم فشلوا في ذلك ولم يستعيدوا الصليب فيما بعد، ربما لأن العماد الأصفهاني كان أكثر حكمة وأبعد نظراً حينما قرر أن حرمان الصليبيين من صليبهم المقدس يحرمهم من مصدر قوتهم الروحية والمعنوية.

وعلى الصعيد الاقتصادي فإنه في ظل موارد الصليبيين الاقتصادية المحدودة واعتمادهم شبه الدائم على الدعم الأوربي فإنه كان من المتوقع أن يسعى الصليبيون إلى توظيف كافة الموارد المتاحة للحصول على الأموال، وبالرغم من أن الصليبيين وظفوا الرفات والمتعلقات المقدسة لذلك الغرض فإن الأمر كان على نطاق ضيق ولم

يكن يدر دخلاً منتظماً للمملكة والكيانات الصليبية الأخرى في الشرق، وإنما ارتبط ذلك بمواسم الحج إلى المزارات الدينية[١١٢]، حينما جرى العرف على أن تُقدم بعض النذور في تابوت الرفات التي يقوم الحجاج بزيارتها، وبالرغم من عدم تحديد المبلغ من قبل المؤرخين المعاصرين فقد قدره فابري في فترة متأخرة بأنه يتراوح ما بين دوقية وأربع دوقيات "...وقبلنا الآثار المقدسة ووضعنا تقديماتنا من الذهب والفضة في التابوت، فقد وضع بعضنا أربع دوقيات، وبعض آخر ثلاثة وبعض دوقيتين، ووضع الشطر الأكبر ما لا يقل عن دوقية واحدة..."[١١٣].

وقد حوت بيت المقدس وبقية الكيانات الصليبية الكثير من الرفات والمتعلقات المقدسة ناهيك عن المزارات المقدسة مثل كنيسة القيامة والضريح المقدس وقبة الصخرة وجبل الجلجثة والناصرة وبيت لحم وما إلى ذلك، بينما كانت الرفات كثيرة ورُوعي تأمينها خوفاً من سرقتها، ونُقل بعضها إلى بيت المقدس وبيت لحم وغيرها من الأماكن التي سيطر عليها الجيش الصليبي في صدر الحروب الصليبية[١١٤]، ولا ريب في أن كثرتها تعني الحصول على كثير من النذور والهدايا[١١٥].

بينما وُظفت القيمة الروحية لبعض الأواني المقدسة الحاوية للرفات لأغراض اقتصادية أخرى، كأن يُقدم بعضها رهناً لحصول المملكة على بعض القروض[١١٦]، أو أن تقع غنيمة حرب فتعرض إحدى المدن التجارية مبلغاً ضخماً مُقابلها على ما جرى مع الجنوية الذين اشتروا أحد الآنية بمبلغ كبير للغاية ووضعوه في كنيستهم "...ووجدوا في ذلك المسجد وعاء لونه أخضر على شكل صحن، وقد أخذه الجنويون...من الزمرد...مقابل مبلغ كبير من المال وقدموه بمثابة هدية ثمينة لكنيستهم..."[١١٧].

واعتاد رهبان بيت المقدس وغيرهم بيع بعض الرفات إلى الحجاج الأوربيين، وبخاصة قطع الصخور المنحوتة من قبة الصخرة ومن بعض الحجارة المقدسة "... فخاف بعض ملوكهم أن تفنى فأمر بها ففرش فوقها حفظاً لها..."[١١٨].

وقد تلهف الحجاج الغربيين للحصول على قطعة من خشب الصليب الحقيقي بأي ثمن[١١٩]، أو سعي بعضهم للحصول على قطعة من أحد أبواب القدس التي كانت

تُساوي مبلغاً كبيراً، أما شراء الرفات أو سرقتها ونقلها فإنه كان من الأمور الشائعة وإن كنا قد تحدثنا عن نقلها في موضع سابق، فضلاً عن بيع ما أُطلق عليه حليب العذراء "...وهذا ناتج عن أنه في أثناء إرضاع العذراء – عليها السلام – للسيد المسيح– عليه السلام – تساقطت نقطة من حليبها على الصخرة التي كانت تجلس عليها، وظلت تلك النقطة قائمة على الصخرة وظلت لازجة ترشح نقاطاً من الحليب الذي يُسارع الجميع لجمعه ثم عرضه في الغرب..."[١٢٠]، ويُرجح أنه كان يُباع مرة في الشرق ومرة أخرى ولكن أغلى في الغرب، ناهيك عن بيع الزيوت المقدسة المنبعثة من بعض الرفات[١٢١]، وما إلى ذلك من أشكال الاستغلال الاقتصادي الذي وقع ضحيته الحجاج الأوربيين الذين كانوا يسعون إلى الحصول على الرفات والمتعلقات بأي ثمن.

وفي المقابل فقد تحمل الصليبيون من جهة أخرى مسئولية دفع مبالغ طائلة لاسترداد الرفات المقدسة الأسيرة في أيدي المسلمين[١٢٢]. وبالرغم من أن الصليبيين في سعيهم لاستعادة المتعلقات والرفات من المسلمين تحملوا مبالغ كبيرة فإنهم من جهة أخرى أفادوا من تلك الرفات بتوظيفها في الغرب فضلاً عن الرفات الأخرى التي لم يكلفهم الحصول عليها أية أعباء مالية.

ووظفت الرفات والمتعلقات المقدسة في الناحية الصحية حينما نُسب إلى قدراتها الشفاء ونُسب إلى شجرة البلوط أو السنديان التي جلس بقربها الخليل إبراهيم – عليه السلام – قدرات علاجية بحيث إذا حُمل منها الفارس قطعة فإنها تمنحه الثبات على فرسه[١٢٣].

وعلاوة على ذلك فقد وُظف أيضاً ما عُرف باسم حليب العذراء – ذاك الذي حُمل من الشرق وعُرض للبيع في كافة أنحاء أوربا – توظيفاً طبياً نتيجة للترويج لقدرته العلاجية الفائقة، بينما نسب آخرون إلى الزيت المقدس الذي يرشح من تمثال للسيدة مريم العذراء قدرة فائقة على عدم جنوح السفن أو تعرضها للغرق "...وهو الزيت الذي يحمل منه الحجاج الذين يأتون إلى هناك من كل جزء من العالم قوارير صغيرة..."[١٢٤]، ولضمان نجاح الترويج فإن المؤرخين نسبوا له قدرات كبيرة

"...وقد مسح كثير من الناس أنفسهم به فلم يُعانوا بعد ذلك من أي مرض...ولم يتوقف هذا الزيت عن الصدور مطلقاً..."[١٢٥].

بينما استُخدمت بقايا الشموع استخداماً آخر حينما قام الحجاج بإضاءتها في الأماكن المقدسة بالشرق "...مدة ثم يقومون بإطفائها وأخذ ما تبقى منها إلى بلدانهم حيث جعلوا زوجاتهم يحملنها عندما يكنّ في فراش الولادة، علهن يلدن من دون مخاطر تبركاً بالمكان الذي جاءت منه وهو كنيسة الضريح المقدس.."، ولم يتوقف الأمر على ذلك بل وصل إلى توظيف الصليبيين لأحد أبواب القدس الخشبية توظيفاً طبياً يمنح الشفاء لحامله من السكتة الدماغية والوباء "...من يحمل قطعة صغيرة...سيكون في ذلك حماية له من السكتة الدماغية، أو الوقوع في المرض والوباء..."[١٢٦].

وفي نهاية القرن الخامس عشر صور فابري أن كلا من المسلمين والمسيحيين الشرقيين يُمجدون المكان الصخري الذي صُلب فيه المسيح ويؤكد أن المسلمين يتبركون به[١٢٧]، وعن الصورة التي تحتويها كنيسة صيديانا والزيت الذي يرشح منها نسب فابري توافد المسلمين إليها "...من الأحواز المجاورة ويكون ذلك في أيام عيد سيدتنا في شهري آب وأيلول، فهناك يصلون ويتعبدون ويعملون النذور..."[١٢٨].

كما نسبوا إلى نبع في قرية عمواس الكثير "...يجري هنا نبع في مائه شفاء للناس، إذا اغتسلوا فيه زالت عنهم أوجاعهم، وتبرأ فيه الحيوانات الدنيا من كل ما تتعرض له من أمراض خاصة بها، وتقول الرواية في تفسير هذا الاعتقاد إن المسيح ذاته تجلى في أثناء هذا السير لتلاميذه عند هذا النبع وغسل بنفسه أقدامهم في مياهه التي أصبحت منذ ذلك الحين برداً لكل الأسقام"[١٢٩].

وعلى صعيد آخر فقد وُظفت الرفات في القسم بين المتعاهدين، فمنذ الوهلة الأولى وُظفت كافة الرفات المقدسة والأكثر قيمة خلال يمين القسم المشهور الذي بذله أغلب قادة الحملة الصليبية للإمبراطور ألكسيوس الأول كومنينوس Alexius I Comnenus كي يُعيدوا له المدن والقلاع التي سبق وكانت من أملاك الإمبراطورية

البيزنطية في حالة استعادة الحملة الصليبية الأولى لها "[١٣٠]، بل وأقسم كل من بوهيمند الأول وألكسيوس كومنينوس على الرفات المقدسة خلال اتفاق ديفول الذي عُقد بينهما عام ١١٠٨م على احترام العهود والمواثيق وعدم محاربة أحدهم الآخر"...وبعد أن تمت مناقشة معاهدة بينهما...أقسم الإمبراطور على أغلى الذخائر المقدسة ووعد بوهيمند بأن الحجاج الذين ورد ذكرهم كثيراً سوف يكونون من ذلك اليوم فصاعداً آمنين سالمين، سواء في البر أو في البحر على مدى امتداد سلطة الإمبراطور وأن أحداً منهم لن يُمسك أو تسوء معاملته، وأقسم بوهيمند بدوره على أن يحافظ على السلام والإخلاص للإمبراطور في كل الأمور"[١٣١].

وعلاوة على ذلك فقد استخدم القسم على الرفات والقربان المقدس للتعاهد بين الصليبيين على عدم الفرار من أرض المعركة وهم يُواجهون المسلمين، ولعل أبرز مثل على ذلك تعاهد الصليبيين المحاصرين في أنطاكية على عدم الفرار نتيجة للذعر الذي أصاب الجميع[١٣٢] "...حينذاك أمر أسقف بوي بإحضار الأناجيل والصليب ليُقسم ذلك القسيس على صدق ما قاله، وفي تلك الساعة اتفق زعماؤنا أن يُقسموا بسر القربان المقدس ألا يحاول أحدهم...أن يفر أو يهرب من الموت أو إنقاذ حياته"[١٣٣]، وهو القسم ذاته الذي استخدمه الملك ريتشارد قلب الأسد في ظروف مُشابهة للكشف عن الذين ارتاب فيهم من أتباعه" ولأجل ذلك أيضاً ألزم ريتشارد رجاله وقادته بالقسم على صدق النية لدى مهاجمة صلاح الدين[١٣٤].

وكثيراً ما ارتفعت الحالة المعنوية لدى الصليبيين عقب إلزامهم بالقسم على الصليب[١٣٥] وقد دارت هذه الأحداث عند عسقلان، وهنا فقد حل الصليب محل الإنجيل في القسم لدى الخطوب المهمة التي تسبق مواجهة كبرى أمام المسلمين، ويُشير السرياني إلى فرار صلاح الدين نتيجة لهذه الروح.

أما من ناحية المسلمين فإنهم كانوا على علم بتوقير الرفات والمتعلقات من قبل الصليبيين فجعلوهم يُقسمون عليها لضمان الوفاء بالعهود "وربما لأجل ذلك عُد من يخالف قسمه من الصليبيين على الرفات غير أهل لمحالفته أو مهادنته من قبل المسلمين" [١٣٦].

الحواشي

١- اتخذ تقديس الرفات بُعداً أوسع في غرب أوربا ومن ثم عصر الحروب الصليبية، وبالرغم من تحريم القانون الروماني المساس برفات الموتى وتداولها فقد حرصت المجامع الكنسية على توضيح مفهوم عقيدة الرفات التي تدرجت من المفهوم الشعبي الذي يرى فيها قوة القديس نفسه وكأنه يحيا على الأرض كما أقر مجمع نقية عام ٧٨٧م إلى تقديسها وليس عبادتها على ما أقر مجمع ترنت الذي عُقد على فترات متقطعة ما بين عامي ١٥٤٥، ١٥٦٣م.

وثمة تعريف وظيفي للرفات والمتعلقات المقدسة مُمثل في أنها "...القناة الرئيسة التي من خلالها تُصبح القوى الروحية الخارقة مُتاحة للإنسان العادي، وبالرغم من أن الرجل العادي يرى هذه المتعلقات ويتداولها فإنها لا تنتمي إلى هذا العالم الفاني، بل هي جزء من عالم الخلود وفي يوم البعث سوف يستعيدها القديسون وتُصبح جزءاً من الجنة". انظر:

الأمين عبد الحميد أبو سعدة: "التوظيف السياسي لرفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة في أوربا العصور الوسطى"، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، عدد ٣٥، أغسطس ٢٠٠٤م، ص٣١٣-٣١٤.

٢- Thomas, The Cult of the Saints, At: http://www.the-orb.net/encyclop/religion/hagiography/cult.htm ; Wilson, Steven (ed.), Saints and Their Cults, Cambridge University Press, ١٩٨٣; Reinburg, Virginia. "Remembering the Saints," in Memory in the Middle Ages, (eds.), Nancy Netzer and Virginia Reinburg (Chestnut Hill, MA, ١٩٩٥), pp. ١٨-٣٣.

٣- Roger of Wendover, *Flowers of History*, vol. II, London, pp.٢١٠-٢١١.

٤- من الرفات والمتعلقات المقدسة التي حواها الضريح المقدس منذ الأيام الأولى للمسيحية: صليب الصلبوت مع بقية أدوات آلام المسيح - عليه السلام - التي عثرت عليها هيلانة والدة الإمبراطور قنسطنطين العظيم، فضلاً عن السلسلة التي لفت حول عنق المسيح - عليه السلام - وتبركاً بها فقد اعتاد الحجاج وضعها حول رقابهم عند زيارتهم للكنيسة، علاوة على الكأس الكبير الذي تشارك به المسيح - عليه السلام - مع حواريه في العشاء الأخير والمنديل وما إلى ذلك. انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٣٨ (٢)، دمشق، ٢٠٠٠م)، ص٤٤٥-٤٤٦.

٥- Burke, (G.K.), The justifications for Relic thefts in the Middle Ages, A Thesis Submitted to the Faculty of Miami University in partial fulfillment of the requirements for the degree of Master of Arts, Department of Comparative Religion, Oxford, ٢٠٠٤, pp.٨-٩.

وفي معنى رفات الاتصال يقول فيلكس فابري: "...وهكذا أخذت كل من المجوهرات التي عُهد بها إلي في أولم من قبل الأعزاء علي ومجوهرات رفاقي من موالي الفرسان، ووضعت كل قطعة منهم في التابوت حيث لمست بهم الرأس المقدس للعذراء النبيلة...". انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص١٤٠٨.

٦- Fichtenau, Heinrich, Living in the Tenth Century: Mentalities and Social Orders. trans. Patrick J. Geary, University of Chicago Press, ١٩٩١, p.٣٢٩.

٧- Thomas H., The Cult of the Saints and Their Relics, Hunter College and the Graduate Center, CUNY. At, http://www.the-orb.net/encyclop/religion/hagiography/cult.htm.

٨- Fichtenau, Living in the Tenth Century, p. ٣٢٨.

٩- ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٦، دمشق، ١٩٩٥م)، ص٢٥٩-٢٦٩؛ مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وقدم له وعلق عليه: حسن حبشي، القاهرة، ص٨٢-٩٤؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، جـ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٣٩٦-٣٩٧، جـ٢، ص٥٤-٥٦.

١٠- كثرت المزارات التي توسم فيها الحجاج حدوث المعجزات كحال الرفات تماماً منها على سبيل المثال: قطعة عمود موجودة في إحدى الكوى أو الشرفات، تستمد قيمتها من ربط المسيح - عليه السلام - إليه وجلده عليه، ويتبرك به الحجاج حينما يزورون كنيسة الضريح المقدس ويحرصون على لمسها. ومن جهة أخرى فقد أشار الأصفهاني إلى كنيسة القيامة بصفتها منجماً للرفات المقدسة لدى الصليبيين "...وفيها صور الحواريين في حوارهم، والأحبار في أخبارهم، والرهابين في صوامعهم والأقساء في مجامعهم...ومثال السيد والسيدة، والهيكل والمولد والمائدة والحوت...قالوا: وفيها صُلب المسيح - عليه السلام - وقُرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور وزل اليجور...".

أما عن المكان الذي طُبع فيه قدمي المسيح - عليه السلام - فإنه مُقدس للغاية لدى الحجاج ويقبلونه وقت زيارتهم له، وكانت كنيسة القيامة مقصداً للحجاج الجدد، ولم يقل الموضع الذي حوى فراش السيد المسيح - عليه السلام - تحت، سدة الكنيسة أهمية وإنما كان أحد أهم أماكن التبرك من قبل الحجاج، وكانت بقايا بعض الرفات في أحد الكهوف تُعد مزاراً مهماً لبعض الرحالة.

انظر: ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، جـ٦، ص٢٥٩-٢٦٩؛ جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (١)، ص٢٤٠، جـ٣٨ (٢)، ص٤٧١- ٤٧٤؛ الأصفهاني(محمد بن

صفي الدين ت: ٥٩٧هـ): الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار، ٢٠٠٤م، ص٦٧، ٢٤٩؛ الراهب دانيال الروسي: رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الأراضي المقدسة، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٣١، دمشق، ١٩٩٨م)، ص٢٩٥. وأيضاً:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, ,Tome III, p.١٩٣.

١١- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، جـ١، ١٩٦٩م، ص٧١؛ على السيد علي: القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٢٠٨-٢١٨.

١٢- منال محمد السيد: "الحربة المقدسة بين الحقيقة والخيال"، دورية العلوم الإنسانية، كلية الآداب جامعة بني سويف، عدد١٦، ٢٠٠٩م، ص١٧١-١٩٢.

١٣- دانيال الراهب: الرحلة، جـ٣١، ص٢٩٥.

١٤- أشار فابري إلى أن انتزاع صليب الصلبوت من البيزنطيين أفقدهم قوتهم فترنحت كنيستهم وغدت أكثر غرقاً. انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٤٧٢، ١١٠٤. وأيضاً:

Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp.٦٠-٦٢.

١٥- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٦١٢.

سخر فابري من المسيحيين الشرقيين - ومن يُقلدهم من المسلمين - الذين يقطعون بعض الحجارة من المكان الذي عثر فيه على الصليب ووضعها في الماء وشربه وهذا كفيل بشفائهم من أي مرض، أو حلاقة شعرهم ووضعه بتلك المنطقة كي يتم الشفاء، ويعد فابري هذه العادات باطلة لا أساس لها. انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٤٨٥.

١٦- قال فابري عن ذلك الحقل "...الذي صنع آدم منه" وقال أيضاً إن بعض الحجاج يأخذون بعض الصلصال "...وبعض الحصا من هذه الأرض لتكون آثاراً مقدسة". انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٤٨٢.

١٧- أشار ثيودريك إلى النار المقدسة وعن كيفية استقبال رجال الدين في الشرق لها، وفي أيديهم صلبان بها قطع خشب من الصليب المقدس. انظر: ثيودريك: رحلة ثيودريك، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٣٤، ق١، دمشق، ١٩٩٨م، ص٣٢٢.

١٨- Odo of Deuil, *La Croisade de Louis VII, roi de France*, IV, ed. Henri Waquet, *Documents relatifs à l;histoire des croisades*, Vol ٣, (Paris, ١٩٤٩),pp.٤٤-٤٦, translated by James Brundage, *The Crusades: A Documentary History*, (Milwaukee, WI: Marquette University Press, ١٩٦٢),pp. ١٠٩-١١١.

١٩- أخذت القديسة هيلانة معلفاً خشبياً ونقلته إلى القسطنطينية ومنها إلى كنيسة اللاتيران في روما، ويعلل فابري هذا النقل بأنه لم يكن سرقة وإنما قصدت هيلانة جعل الأماكن الأخرى مبجلة أيضاً بسبب الرفات المقدسة المأخوذة من بيت لحم، حيث وُزعت هذه الرفات في الغرب الأوربي وكانت تُعرض كل سبع سنوات حتى عام ١٤٨٧م. راجع: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٦٨٨، ٧٢٠-٧٢١.

٢٠- كان يحدث أحياناً العكس، بأن يتم استمالة البيزنطيين بإهدائهم للرفات والأدوات الثمينة كسباً لودهم على ما حدث في أثناء الحصار البيزنطي الصليبي لمدينة شيزر عام ٥٣٢هـ/١١٣٨م "...وأرسلوا (أي بني منقذ أمراء شيزر) له الهدايا وأواني ذهبية وفضية مختصة بالسر المقدس وصُلبان من الذهب حصلوا عليها من انتصاراتهم على الأباطرة، واحتفظوا بها منذ زمن آبائهم، وغادر الإمبراطور شيزر...". انظر: متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٥، دمشق، ١٩٩٥م)، ص٦٠.

٢١- الضمير عائد على شارل ملك الألمان سنة ٧٧٦م.

٢٢- ضمير المنح عائد على إمبراطور القسطنطينية في أثناء عودة شارل من القدس وإقراره الأمور بين المسلمين والمسيحيين.

٢٣- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (١)، ص١٠٧٠-١٠٧١.

٢٤- عن نقل رفات الشرق إلى القسطنطينية انظر أيضاً: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٤٣-١٤٤؛ بورشارد من جبل صهيون: وصف الأرض المقدسة، ترجمة: سعيد البيشاوي، عمان، ١٩٩٥، ص١٤٠.

٢٥- أشار فابري إلى تلك الأماكن تفصيلا بقوله: "...ففي البندقية في جزيرة كورانو حوالي مائة جسد من أجساد الأبرياء في قبر واحد، وكنت قد رأيتُ في الدير الدومينيكاني في نورمبرج جسداً كاملاً لأحد الأبرياء، ويمتلكون في دير الدومينيكان في ستراسبورغ أيضاً واحداً من الأجساد الكاملة، ويمتلكون في بازل في دير الدومينيكان هناك يداً واحدة وعدة مفاصل عائدة لهم في وعاء قربان مقدس وثمين، ويُوجد في دير الدومينيكان في أولم قميص صغير مُلوث بالدم ومخروق بضربات سيف". انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٦٩٤.

٢٦- قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، طـ١، دار عين، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٢٥-٢٦.

٢٦- زابوروف: الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م، ص٤٦-٤٨؛ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، دار عين، القاهرة، ١٩٩٣م، ص١٨-٢٦.

٢٧- الضمير عائد على أمير أوربي زار القدس قبيل الحروب الصليبية ربما عام ١٠٣٩م.

٢٨- دانيال الراهب: الرحلة، جـ٣١، ص٣٣٢-٣٣٣. وأيضاً: تاريخ أسرة بلانتجنت، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٣٠، دمشق، ١٩٩٨م)، ص٢٢

٢٩- ابن الأثير(علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ت: ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، جـ١٠، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٨٧م، ص١٥٨.

٣٠- يُشير ريمون داجيل إلى حمل قادة الحملة الصليبية الأولى رفات مجهولة معهم إلى القدس"...وسألنا الرب الذي جعل هذه الآثار مُقدسة أن يحددها لنا لتكون رفيقاً لنا وعوناً، وسيكون هؤلاء القديسيون مرتبطين بنا...وهكذا يربطوننا بالرب، وأتينا في الصباح التالي بصحبة بطرس ديزيديريوس إلى مكان آثار القديسين وحسبما روي من قبل تماماً وجدنا بقايا القديس كيبريان والقديس أوميخيوس والقديس ليونتيوس والقديس يوحنا ذهبي الفم، كما وجدنا هناك أيضاً خزانة بها آثار لم يتعرف عليها الكاهن، وعندما سألنا السكان المحليين اختلفوا في تعريفها، فقال بعضهم: إنها للقديس مركوريوس، بينما ذكر آخرون أسماء قديسين آخرين، وبغض النظر عن غموض أمرها لقد أراد ديزيديريوس جمعها ووضعها مع الآثار الأخرى". انظر: ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، جـ٦، ص٢٨٧.

٣١ -Burke, The justifications for Relic thefts, pp.٨-٩.

٣٢ - تاريخ أسرة بلانتجنت، جـ٣٠، ص٢٢.

٣٣- الأمين أبو سعدة: توظيف رفات القديسين، ص٤٢٩. وأيضاً:

William of Malmesbury, *Gesta Pontificum Anglorum* (*History of the English Bishops*), RS., vol.٥٢, p.٣٩٨; Matthew of Paris, *English History*, trans. J. A. Giles, (London, ١٨٥٢), Vol. II, pp.٢٣٩-٢٤٢.

٣٤- Thomas, The Cult of the Saints, At: http://www.the-orb.net/encyclop/religion/hagiography/cult.htm . See also: Brown, (P.), *The Cult of the Saints: Its Rise and Function in Latin Christianity*, University of Chicago Press, ١٩٨١.

٣٥- Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp.١٠٩-١١٠.

٣٦ -Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp, ٦٠-٦٢, ١٠٩-١١٠, ٢١٠-٢١١, ٣٤١, ٤١٠-٤١٦.

وأيضاً: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٤٧٢.

٣٧- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (١)، ص١٤٠٨.

٣٨- Guibert's *Treatise on Relics*, bk.١, chap. I, col. ٦١٤, From C.G. Coulton, (ed.), *Life in the Middle Ages*, (New York: Macmillan, c.١٩١٠), Vol I,pp. ١٥-٢٢.

٣٩- Pope Innocent III, Ep ١٣٦, *Patrologia Latina* ٢١٥, ٦٦٩-٧٠٢, translated by James Brundage, *The Crusades: A Documentary History*, (Milwaukee, WI: Marquette University Press, ١٩٦٢), pp.٢٠٨-٢٠٩; Choniates, N., O City of Byzantium: Annales of Niketas Choniates, trans. by Harry I. Magoulias, (Detroit,١٩٨٤), pp.١٥-١٦.

Wilson, (ed.). *Saints and Their Cults*, pp. ١٨-٣٣. -٤٠

٤١- Lateran Councils, Introduction and translation taken from *Decrees of the Ecumenical Councils*, (ed.), Norman P. Tanner, http://mb-soft.com/believe/indexaz.html.

كثرت الرفات في أوربا ونمت عبادتها بسرعة كبيرة بحيث أنه بحلول عام ١٢٧٤م كان ممنوعاً تبجيل أي رُفات أو مُتعلقات مُقدسة دون مُوافقة البابا، وقد أكد توماس الأكويني Tommaso d'Aquino (١٢٢٥-١٢٧٤م) أهمية الآثار باعتبارها أحد مظاهر الربوبية، وأكد عقيدة الشفاعة بالقديسين وعد الرفات تأكيداً لوعد قيامه في المستقبل. انظر:

Colin Blakemore and Shelia Jennett, "Relics", at: The Oxford Companion to the Body, ٢٠٠١, Retrieved October ٢٢, ٢٠١١ from Encyclopedia.com: http://www.encyclopedia.com/doc/١O١٢٨-relics.html.

٤٢- Stevenson (J.), (ed.), *De Expugatione Terrae Sanctae per Saladinum*, [The Capture of the Holy Land by Saladin], Rolls Series, (London, ١٨٧٥), trans. by Brundage (J.), *The Crusades: A Documentary History*, (Milwaukee, WI: Marquette University Press, ١٩٦٢), pp.١٥٣-١٥٩

٤٣- Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp.١٠٩-١١٠.

٤٤ -Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp٤١٩-٤٢٠.

وأيضاً: أوليفر أوف بادربورن: الاستيلاء على دمياط، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٣٣، دمشق، ١٩٩٨م)، ص٥٩، ٦٣، ٦٤.

٤٥- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (١)، ص١١٤٥.

٤٦- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٥٣٥-٥٣٦.

ثمة حالات خاصة قليلة لم يقف الباحث على كثير منها تمثلت في قيام المسلمين بإهداء بعض الرفات إلى المسيحيين ولكن من المحليين، حينما منح قلج أرسلان - حاكم ملطية - ميخائيل السرياني وغيره علبة من الذهب المرصع فيها عظام القديس بطرس رأس الرسل "...وبقينا في ملطية شهراً كان فيه كل يوم يرسل لنا الهدايا..."، فوضعوا ذلك في دير مار برصوم وحينما

احترق الدير فقد أشار المؤرخ إلى حدوث معجزة كانت الرفات سبباً في حدوثها. انظر: ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٥، دمشق، ١٩٩٥م)، ص٢٨٧-٢٨٨

٤٧-على السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص١٨٧-٢٣٩ .

٤٨- انظر في ذلك: يوحنا فورزبورج: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البيشاوي، عمان، ١٩٩٧م، ص٤٢-٤٩، ٥٩، ٧٠، ٧١، ٧٩، ٨٤-٨٥، ٩٣، ١٠٣؛ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٤، ١٣٦-١٦٠، ١٥٤-١٥٥؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ١، ص٩٧، جـ٢، ص٣٤-٣٥، ٧٩-٨٤، ٩٦، ١١٠-١١١، ٤١٦؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، ١٩٩٠م، ص٣٢-٣٩، ٤٧-٥٥، ٦٤-٦٨، ٧١-٨٥.

٤٩- صيدنايا: مدينة تابعة لدمشق، وتُعدّ واحدة من أعرق المدن المسيحية في الشرق بعد القدس ويعني اسمها سيدتنا في اللغة الآرامية، وتقع على ارتفاع ١٤٥٠ متر عن سطح البحر، وهي مدينة تشتهر بجمال طبيعتها ومُقدساتها المسيحية المشهورة، وتعود إلى عصور قديمة وفيها الكثير من الآثار أهمها الأديرة والمقدسات المسيحية وفيها أحد أهم الأديرة المسيحية في العالم وهو دير السيدة، وقد بناه الإمبراطور البيزنطي جستنيان. انظر:
http://ar.wikipedia.org/wiki.

٥٠- رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٣٨ (١)، دمشق، ٢٠٠٠م)، ص٤٦.

٥١- إرنول: حولية إرنول، ترجمة: سهيل زكار(الموسوعة الشامية، جـ٣٧، دمشق، ١٩٩٩م)، ص١٢١.

٥٢- يُشير د.علي السيد إلى إجبار الحجاج خلال العصر المملوكي على تقديم كثير من الرسوم سواء للمسلمين أم للمسيحيين في الأراضي المقدسة وبيت لحم والخليل وبخاصة إلى ناظر كنيسة القيامة والحراس الذين يأتمرون بأمره. انظر: علي السيد: القدس في العصر المملوكي، ص٢١٧-٢١٨.

٥٣- Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp.٢١٠-٢١١.

٥٤- ذكرت هذه القصة في موضع آخر ولكن بتفاصيل مُغايرة، وإن كان الهدف من القصة واضح للغاية وهو حث غالبية الأوربيين على القدوم إلى الشرق وبخاصة إلى موضع الزيت المقدس الذي يرشح من صورة العذراء لما فيه من قدرات خارقة قد تُؤدي - على وصف سوخم وغيره - إلى مقاومة السفن للعواصف إذا ما وُضع فيها. انظر: لودلف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٣٧، دمشق، ٢٠٠٠م)، ص٤٠٩-٤١٢.

وقد استُخدمت الرفات في أوربا ووُظفت للترويج لأماكن بعينها لجلب الازدهار للمكان أو لرفع مكانته على ما حدث من نقل رفات القديس أندراوس إلى القسطنطينية، أو اعتبار الرفات حامية لبعض المدن على غرار حماية القديس مرقص للبندقية. انظر: الأمين أبو سعدة: رفات القديسين، ص٤١٦-٤٢٣. وأيضاً:

Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp.٢١٠-٢١١.

٥٥- August. C., *The First Crusade: The Accounts of Eyewitnesses and Participants*, (Princeton: ١٩٢١), pp. ٣٦-٤٠; Amadi, *Chronique D'amadi*, Publiees par De Mas Latrie, (Paris, ١٨٦١), p.٥٨; Bongars, *Gesta Dei per Francos*, ١, pp. ٣٨٢, trans in Oliver J. Thatcher, and Edgar Holmes McNeal, eds., *A Source Book for Medieval History*, (New York: Scribners, ١٩٠٥), ٥١٣-١٧. See also: Nicolle (D.), *Hattin ١١٨٧ Saladin Greatest Victory*, (Oxford, ٢٠٠٥); Munro (D.), "Urban and the Crusaders", *Translations and Reprints from the Original Sources of European History*, Vol. ١:٢, (University of Pennsylvania, ١٨٩٥), pp.٥-٨.

وأيضاً: فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي في الشرق العربي (الاستيطان الصليبي في فلسطين) ترجمة: قاسم عبده قاسم، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م، ص٩٤-٩٥، ١٤٩؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٣٢-٣٩، ٤٧-٥٥، ٦٤-٦٨، ٧١-٨٥.

٥٦- أشار متى الرهاوي في ذلك المعنى مع مبالغة شديدة إلى مهاجمة أمير حلب أحد الأديرة وانتزاعه لمقتنياتها المقدسة من بينها بعض الرفات والمتعلقات "...ثم غزوا أراضي الدوق وأخذوا الأسرى ثم ذهبوا إلى دير القديس سمعان وهو دير إغريقي مشهور ونهبوه وأخذوا منه الذهب والفضة والأموال وكل الأشياء الثمينة، والكتب وصحن الخبز المقدس (صحن الجسر) وكؤوس القربان والعشاء الرباني والصلبان والمباخر وتماثيل من الذهب والفضة وملابس الكهنة الرسمية الثمينة، ونهبوا الرهبان وأخذوهم جميعاً أسرى إلى حلب وقد قُتل أكثر من عشرة آلاف إفرنجي عند الهزيمة التي حلت بهم في حارم...". انظر: متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، جـ٥، ص٨٦.

٥٧- عن مراسلات عموري إلى الغرب ودعايته السيئة ضد المسلمين انظر:

Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.٣٦-٣٧; Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.٣٧-٣٨; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.٥٩-٦٠; Amalrici, Hierusalem Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.١٥٧; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.١٨٧-١٨٨.

٥٨- *Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi*, ed. William Stubbs, Rolls Series, (London: Longmans, ١٨٦٤) IV, ٢, ٤ (pp. ٢٤٠-٤١, ٢٤٣), translated by James Brundage, *The Crusades: A Documentary History*, (Milwaukee, WI: Marquette University Press, ١٩٦٢), pp.١٨٣-١٨٤.

٥٩- مجهول: تتمة كتاب وليم الصوري المنسوب خطأ إلي روتلان، ترجمة: د.أسامة زكي زيد، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص٧٥-٧٤. وأيضاً: رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٧٢؛ قاسم عبده قاسم وعلى السيد على: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، دار عين، القاهرة، ١٩٩٥، ص١٠٠.

Painter (Sidney), "The Crusade of Theobald of Champagne and Richard of Cornwall, ١٢٣٩-١٢٤١", in Setton, A History of the Crusades, vol. ٢, p. ٤٧٤.

٦٠ -Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp.٦٠-٦٢.

٦١- عن المراسلات الأخرى التي شوهت صورة المسلمين قبيل حطين وبعدها انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص٤٦؛ تاريخ أسرة بلانتجنت، جـ٣٠، ص٢٠٦، ٢٣٣. وأيضاً:

Letter from the East to Master of the Hospitalers, ١١٨٧, in http://www.shsu.edu/~his_ncp/Cruslet.html; *Letter of Frederic I to Leopold of Austria, ١١٨٩*, http://www.shsu.edu/~his_ncp/Cruslet.html; *Letter of Sibylla, Ex-Queen of Jerusalem* to Frederic I, ١١٨٩, http://www.shsu.edu/~his_ncp/Cruslet.html; Roger of Wendover, *Flowers of History*, vol. II, pp.٧١-٧٢; Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*, (Berlin, ١٨٨٣), p.٧٢. See also: Keder, (B.Z), *European Approaches towards the Muslims*, (Princeton, ١٩٨٤), pp.٥٦-٧; Munro, (D.), "The Western Attitude toward Islam during the Period of the Crusaders", *Speculum*, Vol. ٦, No. ٣ (Jul., ١٩٣١), pp.٣٢٩-٣٣٠, ٣٣٧-٣٣٨.

٦٢- Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp.١٠٩-١١٠.

٦٣- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (١)، ص١١٤٥، جـ٣٨ (٢)، ص٤٤٥.

تسبق إشارات تعمد التشويه وإساءة الظن بل والترويج لذلك عصر الحروب الصليبية بكثير، بيد أنه هناك بعض المؤرخين الصليبيين الذين أقروا بمعاملة المسلمين للمقدسات المسيحية بإجلال ووقار "...ولا يدخل المسلمون إلى هذا الهيكل إلا بعد أن يكونوا قد طهروا أنفسهم بالوضوء، ثم يقتربون منه بوقار ولياقة، ليس بشكل حاشد بل يمشي كل إنسان لوحده وكأنه سيد عظيم، ولا يتكلم أحدهم مع الآخر ولا يجلبون الأطفال أو الكلاب معهم، وبذلك لا ينزعج إنسان في أثناء صلاته..."، ولعل النصوص الدالة على ذلك والمؤيدة له كثيرة ولكن لا مجال لسردها، ولذا فإننا

نرى فيما يسوقه أغلبهم بعيد عن الواقع وأن ما يُرددونه من ترويج ودعاية سيئة لم يُقصد به سوى استثارة الغرب للمساعدة لا أكثر. انظر: انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (١)، ص١٠٤٢. وأيضاً:

Roger of Wendover, *Flowers of History*, vol. II, pp.٧١-٧٢; Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*, p.٧٢. See also: Keder, (B.Z), *European Approaches towards the Muslims*, pp.٥٦-٧; Munro, The Western Attitude, pp.٣٢٩-٣٣٠, ٣٣٧-٣٣٨.

٦٤- انظر: امبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٣٢، دمشق، ١٩٩٨م)، ص٣٢٩-٣٣٠؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٨١.

٦٥- الأصفهاني: الفتح القسي، ص١٨٣،١٧٢.

٦٦- متي الباريسي: التاريخ الكبير، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٥، دمشق، ١٩٩٨م)، جـ٥، ص١٨٨٢.

٦٧- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٧٧.

٦٨- حينما انسحب الماركيز كونراد دي مونتفرات إلى صور فقد أُرسلت له أكثر من سفارة للعودة إلى معسكر الحملة الثالثة وبخاصة عقب رحيل الملك فليب أغسطس، وقد رفض الماركيز العودة لعدة أسباب كان من بينها رفضه التنازل عن نصيبه في الأسرى إلا على شرط وهو تقسيم الصليب المقدس كي يأخذ نصيبه منه، وقد وصف امبرويز طلب الماركيز بالوقاحة. انظر: امبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، جـ٣٢، ص٣٤٠-٣٤١.

٦٩- فولشر أوف شارتر: الوجود، ص٢٧٧-٢٨٧، ٢٩٦-٢٩٨.

٧٠- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٧٤-٢٨٧، ٢٩٦-٢٩٨، ٣١٥؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٣٥٦-٣٥٧.

٧١- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٤٦١.

٧٢- فورزبورج: وصف الأراضي المقدسة، ص٨٣، ٩١-٩٣.

٧٣- انظر: مجهول: أعمال الفرنجة، ص٦١-٦٣؛ فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص١٢٩-١٣٠، ١٤٠، ١٩٦-٢٧٣،١٩٧،٢١٣،٢٠٥، ٢٧٠-٢٧٣، ٢٨٠-٢٨٧، جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٢٦.

٧٤- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص١٨-٢٠، ٢٣-٢٦؛ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية، ١٩٩٠م، ص١٥-٣٥، ٤٩-٥١؛ عبد الله الربيعي: "الدوافع الدينية للحركة الصليبية"، ضمن ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٧٩-١٢٢.

٧٥- منال محمد السيد: الحربة المقدسة، ص١٧١-١٩٢.

٧٦ –Urban and the Crusaders", pp.٧–٨; August, *The First Crusade, pp.* ٢٨–٣٠.

استخدم الصليبيون شارة الصليب بوصفها أسهل وأسرع الطرق للدلالة على المهمة التي سوف يقومون بها، ونسب المؤرخون إلى حمل الصليبيين لها كثير من الانتصارات التي حُسبت لهم "...فأعلن الفرنجة أنه يجب على كل المسيحيين داخل البلدة أن يلبسوا السلاح ويضعوا إشارة الصليب، وبعدها هجموا كالأسود، وقفزوا من القلعة إلى البلدة وهاجموها كالجزارين فذبحوا جميع المسلمين الصغار والكبار حتى امتلأت المدينة بأشلاء القتلى الألوف لا بل عشرات الألوف...". وقد وقعت تلك الأحداث في الحملة الصليبية الأولى ونسبت انتصارات أخرى كثيرة إلى حمل أفراد الجيش الصليبي للشارة المقدسة. متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، جـــ٥، ص٢٩.

٧٧– ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، جـــ٦، ص٢٤٠،٢٨١.

٧٨– Odo of Deuil, *La Croisade de Louis VII,* pp.١٠٩–١١١.

٧٩– "ولمّا صلب الجنود يسوع أخذوا ثيابه وقسموها أربع حصص، لكلّ جنديّ حصّة، وأخذوا قميصه أيضاً وكان قطعة واحدة لا خياطة بها، منسوجة كلّها من أعلى إلى أسفل. فقال بعضهم لبعض: لا نشقّ هذا القميص، بل نقترع عليه، فنرى لمن يكون. فتمّ قول الكتاب: تقاسموا ثيابي وعلى قميصي اقترعوا. وهذا ما فعله الجنود" (يوحنا ١٩ : ٢٣–٢٤).

٨٠– مجهول: أعمال الفرنجة، ص٣٩–٦١،٤٠–٦٣، ١١٠–١١١؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـــ٢، ص٣٦٢–٢٦٤.

٨١– متي الباريسي: التاريخ الكبير، جـــ٥، ص١٨٨٢.

٨٢– وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـــ٢، ص٣٦٢–٢٦٤.

٨٣– فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص١٢٩–١٣٠، ١٤٠، ١٩٦–٢٧٣،١٩٧–٢٧٤، ٢٨٠–٢٨٧؛ ثيودريك: رحلة ثيودريك، جـــ٣٤، ق١، ص٣٢٣.

٨٤– نبذ الأمير بونز (١١١٢– ١١٣٧م) طاعة الملك بلدوين الثاني عام ١١٢٢م/٥١٦هـــ رافضاً تأدية الخدمة الملكية إليه طبقاً ليمين الولاء الذي بذله للملك، فجمع الأخير قوى مملكته لمحو العار الذي ألحقه به بونز وكادت تحدث حرباً أهليه لولا تدارك الوسطاء ورضوخ الأمير بونز للملك بناء على قرار محكمته العليا. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـــ٣، ص٩٦–٩٩.

٨٥– فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٧٩–٢٨١.

كانت مرافقة الصليب للملوك وقيامهم بتبجيله أمام الجيش كفيلة برفع الحالة المعنوية لديهم على ما حدث على عصر الملك بلدوين الرابع المجذوم حينما سجد أمام الصليب وأجهش بالبكاء حينما علم أن صلاح الدين سوف يهاجمهم وحينها ارتفعت الروح المعنوية لدى الصليبيين "...وأقسموا

على الصليب أن يُحاربوا حتى النهاية..."، وقد دارت هذه الأحداث عند عسقلان ويُشير السرياني إلى فرار صلاح الدين نتيجة لهذه الروح. انظر: ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني، جـ٥، ص٢٥٦.

٨٦- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص١٩٦-١٩٧؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢٢٥،١٥١، جـ٤، ص١٥٢.

٨٧ - راجع في ذلك:

Amalrici, *Regis Hierosolymorum*, t. XVI, pp.٣٧-٣٨; Amalrici, *Regis Hierusalem, ad Ludovicum*, t. XVI, pp.٥٩-٦٠; Amalrici, Regis Hierusalem, *ad Henricum*, t. XVI, pp.١٨٧-١٨٨; Amalrici, patriachæ Hierosol, *ad Ludovicum*, t. XVI, pp.١٦٧-١٦٨; Amalrici, patriachæ *Hierosol, ad Ludovicum*, t. XVI, pp.١٦٨.

٨٨- *De Expugatione Terrae Sanctae per Saladinum*, pp. ١٥٣-١٥٤; "Letters of the Crusaders", Trans in Munro (D.), *Translations and Reprints from the Original Sources of European History*, Vol ١:٤, (Philadelphia: University of Pennsylvania, ١٨٩٦),pp. ٢٠-٢٢.

وأيضاً: فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٨٠-٢٩٦،٢٨١-٢٩٨.

٨٩- وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ١، ص٤٠٥، ٤١٠، جـ٢، ص٢٢٥،١٥١، جـ٤، ص١٥١-١٥٢.

٩٠- الأصفهاني: الفتح القسي، ص٤٨،٥٢.

٩١- عن العوامل التي تفاعلت للوصول بالمملكة إلى حالة الضعف تلك انظر: انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص ص٢٩٢-٢٩٣، ٣٠٥-٣١٣، ٣١٦-٣١٧، ٣٣١ - ٣٤٣؛ القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، نشره ووضع فهارسه وقدم له: هـ.ف. آمدروز، ليدن، ١٩٠٨م، ص٣٢٤-٣٣١. وأيضاً:

Kinnamos, *Deeds of John and Manuel Comnenus*, trans. by Charles Brand, (New York, Columbia University Press, ١٩٧٦), pp.١٣٩-١٤٠; Pope Eugenius III, *Letter to Louis VII of France and his Subject*, in The Crusades Documents of Medieval History, vol.٤, (ed.) Smaith, pp.٥٧-٦١.

وأيضاً:

عبد اللطيف عبد الهادي السيد: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣م)، ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة عين شمس، ١٩٩٠م، ص٢٤٥؛ محمد محمد عبد الحميد فرحات: "الدور السياسي لبنات الملك بلدوين الثاني في الشرق اللاتيني"،

دورية الإنسانيات، كلية الآداب، فرع المنصورة، جامعة الإسكندرية، عدد١٣، ٢٠٠٣م، ص٢٩١-٣٢٥.

٩٢- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٤٦.

٩٣- ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص١٤٧.

٩٤- الأصفهاني: الفتح القسي، ص٥٢.

٩٥- أشار الأصفهاني إلى توظيف الصليب في معارك الصليبيين بقوله: "...فإذا أخرجته القسوس وحملته الرؤوس تبادروا إليه وانثالوا عليه، ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن إتباعه في نفسه التصرف، وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك، فإذا الصليب السليب ما له عوض ولا لهم في سواه غرض...يتغاشون عند إحضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج...فلما أُخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيماً، والموقف المنصور كريماً...فهلكوا قتلاً وأسراً، وملكوا قهراً وقسراً...". انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص٥٢.

٩٦ -Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp٤١٩-٤٢٠.

وأيضاً: أوليفر أوف بادربورن: الاستيلاء على دمياط، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ٣٣، دمشق، ١٩٩٨م)، ص٥٩.

وقد أشار بعض المؤرخين إلى الصليب المقدس في أحداث الحملة الخامسة على دمياط ولكن لا توجد همزة وصل بين أخذه في حطين وبين ظهوره فيما بعد بالرغم من أنه لم يُعثر في الاتفاقيات التي عُقدت بين المسلمين والصليبيين على ما يُشير إلى إعادته من قبل المسلمين للصليبيين، ويؤكد ذلك ما أشار إليه المؤرخ ذاته وقت المفاوضات التي دارت بخصوص الصلح، بحيث تضمنت "أنه سوف يعيد الصليب المقدس الذي جرى الاستيلاء عليه من قبل في أثناء انتصار صلاح الدين وذلك مع المدينة المقدسة وجميع الأسرى..."، وهذا يعني أن ما حمله الصليبيون في الحملة الخامسة غير ما وقع في أيدي المسلمين في حطين، أي لم يسمح المسلمون بإعادة الصليب فظل وجوده في المفاوضات أمر عادي بالنسبة للصليبيين.

وفي المعنى ذاته يقول روجر أوف وندوفر: "...وفي العام نفسه (لم يقف الباحث على التاريخ) ولدى انتهاء الهدنة المعمولة بين الصليبيين في أرض الميعاد والمسلمين وفي أثناء العبور الأول بعد المجمع المسكوني الذي عُقد في اللاتيران (مجمع اللاتيران الرابع ١٢١٥م) احتشد جيش الرب في قوة عظيمة في عكا تحت قيادة ثلاثة ملوك هم: ملك بيت المقدس، وملك هنغاريا وملك قبرص...وبالإضافة إلى هؤلاء بطريرك القدس الذي حمل...رمز الصليب المانح للحياة، وقد

انطلق خارجاً من عكا...يؤم معسكر الرب...وكانت هذه قطعة من صليب الرب حُفظت مخفية بعد فقدان الأرض المقدسة والذين أخفوها هم من الصليبيين، وقد أخفوها حتى هذه الأيام، لأنه في أيام الصراع بين المسلمين والصليبيين في أيام صلاح الدين جرى قطع الصليب حسبما سمعنا من شيوخنا، وقد حملت قطعة منه إلى القتال، وهذه القطعة هي التي ضاعت هناك، لكن القطعة التي بقيت أُخفيت والآن أُظهرت وعُرضت، وقد زُود بها الجيش لتكون راية له...".

ويُشير أوليفر إلى وقوفه في محنة دمياط على كتاب بالعربية لم يكن مؤلفه مسيحياً أو يهودياً أو نصرانياً، وأن الكتاب تنبأ بما أحدقه صلاح الدين بالصليبيين وتتبع ما لحق بالصليبيين وصولاً للحقبة التي عالجها أوليفر وقت الحملة الخامسة، ثم ربط ذلك بتنبأ قدوم برستر جون من النوبة لهدم مكة "...ولسوف يفرق عظام النبي محمد ﷺ مع أشياء أخرى لم تحدث بعد..."، وبالرغم من اعترافه بأن صاحب هذا الكلام كافر ولكنه يصدقه لأنه يعتقد "...أن بعض الكفار من الشعوب يمتلكون روح قدس على شفاههم لكن ليس في قلوبهم...". وبالربط بين هذا الكلام غير المنطقي على الأقل بسبب التناقض الذي وقع فيه المؤلف من وقت لآخر في موضوع واحد فإن له دلالة خطيرة وإن لم تكن جديدة وهي السعي للبحث عن معجزة أو التمسك بأهداب قصة قد لا تُقبل من المرة الأولى ولكنه استخدمها للرفع من الروح المعنوية للصليبيين الذين انهزموا أمام دمياط في الحملة الصليبية الخامسة. انظر: أوليفر أوف بادربورن: الاستيلاء على دمياط ، جـ٣٣، ص٦٣، ٦٧. وأيضاً:

Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp.٤١٠, ٤١٩-٤٢٠.

٩٧- عن الدور الدبلوماسي الذي وظفت له الرفات في أوربا انظر: الأمين أبو سعدة: رفات القديسين، ص٤٣٦-٤٤٢.

٩٨- وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص١٠٩-١١٠، جـ٣، ص٩٦-٩٩.

٩٩- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٧٩.

١٠٠- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٤٦٨.

١٠١- متي الباريسي: التاريخ الكبير، جـ٥، ص١٨٨٢.

١٠٢- Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp.١٠٩-١١٠.

١٠٣- قال الأصفهاني في ذلك: "...مقصوده إنهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة الزيارة فيبقون على الاستفار والاستثارة، ومن زار برد قلبه وتنفس كربه ولم يبق له في مشقة العود أرب، ولم يتصل له بهذه الديار سبب، فكان الأمر كما حسب...". بل وهناك بعد نظر آخر لدى صلاح الدين يشير إليه العماد الأصفهاني في معاملته لأسرى المدن الذين دفعوا فديتهم وتقرر إطلاق سراحهم. انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص٧٥-٧٦،٣١٨-٣١٩.

١٠٤- الأصفهاني: الفتح القسي، ص٢٦٩.

١٠٥- امبرويز: صليبية ريتشارد، جـ٣٢، ص٣٢٨.

١٠٦- الأصفهاني: الفتح القسي، ص٢٦٩-٢٧٠؛ ابن شداد (بهاء الدين المعروف بابن شداد ت: ٦٣٢هـ/١٢٣٤م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، دار المنار، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٣٤؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٠٨-٢١١.

١٠٧- حينما لم يضمن صلاح الدين الوسيلة الأكيدة التي طلبها من الصليبيين لضمان استرداد أسراه وقت إرساله أموال فديتهم على مراحل فإنه توقف عن إرسال المال فقتل الملك ريتشارد الأسرى المسلمين، ويؤكد ابن شداد عدم مرونة الصليبيين في مفاوضاتهم بشأن الأسرى، بحيث طلبوا مقابل أسرى عكا كل أسراهم لدى المسلمين ومبلغ الفدية وصليب الصلبوت وهي مطالب مبالغ فيها. ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص١٣٤. وأيضاً:

Richard of Holy Trinity, Itinerary of Richard I and others to the Holy Land (formerly ascribed to Geoffrey de Vinsauf), (Cambridge, Ontario, ٢٠٠١), pp.١٣-١٤.

١٠٨- الأصفهاني: الفتح القسي، ص٢٧٨.

١٠٩- امبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، جـ٣٢، ص٣٣٨-٣٣٩. وأيضاً: ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص١٣٣-١٣٤، ١٥٢.

وافق جاك دي فيتري ما ساقه أمبرويز في هذه الإشكالية بقوله: "...أعلن المواطنون (سكان عكا المحاصرة من قادة الحملة الثالثة) أنهم لا يستطيعون المقاومة أكثر، وسلموا المدينة على أن يخرجوا منها أحراراً وغير متضررين، وليحصلوا على هذا وعدوا بإعادة الصليب المقدس الذي فقده المسيحيون في المعركة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يعثروا عليه، مما أثار غضب ملك إنجلترا الذي أمر بوضع جميع أولئك الواقعين في الجزء الخاص به من المدينة تحت حد السيف...". جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص١٦٥.

١١٠- مجهول: ذيل وليم الصوري، ص٢٣٥-٢٣٨. وأيضاً: الأصفهاني: الفتح القسي، ص٢٩١.

١١١ -Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp .٤٢٢-٤٢٣.

وأيضاً: أوليفر أوف بادربورن: الاستيلاء على دمياط، جـ٣٣، ص١١٠-١١١.

١١٢- عن رحلات الحج المسيحي إلى الشرق ورواج تجارة الرفات المقدسة انظر: على السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص٢٠٣-٢٣٩؛ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية، ص٢٦-٢٩: زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص٢١-٢٣.

١١٣- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (١)، ص١٤٠٨.

١١٤ - انظر: ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، جـ٦، ص٢٨٧؛ تاريخ أسرة بلانتجنت، جـ٣٠، ص٢٢.

١١٥- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (١)، ص١٤٠٨.

١١٦- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٩٩.

أشار ريمون داجيل إلى استخدام الرفات استخداماً عسكرياً واقتصادياً على النحو التالي: "...ولاقت هذه الأوامر قبولاً عاماً وصدرت التعليمات بأن يتولى رجال الدين قيادة موكب يتبعه الفرسان والرجال الأقوياء، وأن يكون ذلك في اليوم السادس من الأسبوع على أن يحملوا الصلبان وآثار القديسين...فانقلب سوء حظنا إلى طالع طيب وبات كل شيء على ما يرام". انظر: ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، جـ٦، ص٢٨٩-٢٩٠.

١١٧- وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢٢١-٢٢٢.

١١٨- ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص١٥٨.

١١٩- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٤٧٢.

لعل من مظاهر ذلك التلهف "...وحصل - الضمير عائد على أمير أوربي زار القدس قبيل الحروب الصليبية ربما عام ١٠٣٩م - على قطعة من الصليب المقدس من واحد من السوريين الذين كانوا يحرسون الضريح"، فضلاً عن ما أشار إليه روجر أوف وندوفر "...وحملوا معهم قطعة من صليب الرب، كانت قد اكتشفت مُؤخراً من قبل واحد من سكان القدس اسمه سيروس Syrus الذي كان قد أبقاها في حفظه وأنها وصلت إليه من عصور قديمة". انظر: تاريخ أسرة بلانتجنت، جـ٣٠، ص٢٢. وأيضاً:

Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp, ٦٠-٦٢, ١٠٩-١١٠, ٢١٠-٢١١, ٣٤١, ٤١٠-٤١٦.

١٢٠- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٦٩٢.

١٢١- مثال ذلك "...تحولت هذه الصورة كلياً إلى تكوين جسدي لذلك هي لا تتوقف لا ليلاً ولا نهاراً عن إعطاء زيت مقدس، وهو الزيت الذي يحمل منه الحجاج الذين يأتون إلى هناك من كل جزء من العالم قوارير صغيرة من زجاج...". ويرجح الباحث أن هذه القوارير كانت تُمنح لقاء تقديمات أو نذور. انظر: رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م ، جـ٣٨ (١)، ص٤٦.

١٢٢- Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp.١٠٩-١١٠.

١٢٣- فورزبورج: وصف الأراضي المقدسة، ص٩٨، ١٥٩.

١٢٤- رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م ، جـ٣٨ (١)، ص٤٦.

١٢٥- إرنول: حولية إرنول، جـ٣٧، ص١٢١.

١٢٦- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٦٨، ٥٨٤-٥٨٥.

١٢٧- استُخدمت بعض الرفات استخداماً عكسيا لوصف من يقوم بتقديرها ببطلان عقيدته فيها على غرار سخرية فابري من المسيحيين الشرقيين الذين يقطعون بعض الحجارة من المكان الذي عُثر

فيه على الصليب ووُضع تلك الحجر في الماء وشربه وهذا كفيل بشفائهم من أي مرض أو حلاقة شعرهم ووضعه بتلك المنطقة كي يتم الشفاء، ويعتبر فابري مثل هذه العادات باطلة ولا أساس لها بل هي عادات دنسة غير مقدسة. انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ٣٨ (٢)، ص٤٥٤، ٤٨٥.

١٢٨- إرنول: حولية إرنول، جـ٣٧، ص١٢١.

١٢٩- وليم الصوي: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٧٠.

١٣٠- ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، جـ٦، ص٢٣٨.

١٣١- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٣٥.

١٣٢- Radulph of Caen, Gesta Tancredi, A history of Norman on the first crusade, trans. By Bernard S. Bachrach and David S. Bachrach, Abingdon, Oxon, GBR., ٢٠٠٥, pp.٧٠-٧٤.

١٣٣- مجهول: أعمال الفرنجة، ص٨١.

١٣٤ -Roger of Wendover, *Flowers of History*, II, pp١١٦-١١٧.

١٣٥- ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني، جـ٥، ص٢٥٦.

١٣٦- ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني، جـ٥، ص١٩٢.

* * *